الصُّرّةُ الرّماديّةُ

جنكو تمّو

دار التّقدّم 2022

الصُّرَّةَ الرَّمادِيَّةَ

(رواية)

الصُّرّةُ الرّماديّةُ

جنكو تمّو

دار التّقدّم
2022

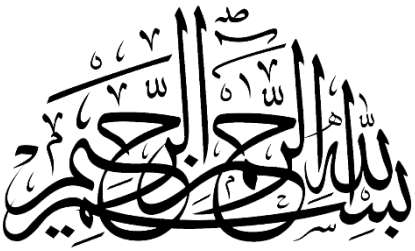

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

الطّبعة الأولى

1444هـ – 2022م

لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب

أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات

أو نقله أو استنساخه بأيّ شكل من الأشكال من دون إذن خطّيّ من المؤلّف

طُبع في دار التّقدّم	القامشلي – سورية هاتف: 0096352440281 جوال: 00963093664772

«بعضُ الأفكارِ سكاكينُ حادّةٌ إنْ أجدْتَ استعمالَها خدمَتْكَ، وإنْ لمْ تُجِدِ استعمالها خذلَتْكَ».

جنكو تمّو

الإهداء

إلى **أبي** الذي كان يشجّعني دائماً . . .

وإلى الصديق **مهران عبده**. . .

وإلى زوجتي (**نجلاء تمّو**)

التي كانت تسهر على راحتي. . .

وإلى أخويَّ: **فوّاز و فراس**. . .

21 آذار/مارس الساعة التاسعة صباحاً

صالة السعادة للأواني المنزلية

من بعيدٍ كان يراقبها، وهي تهمُّ باتجاه الصـــالة نحو هدفها المرصـــود في اقتحامٍ ســـريع، فحاولتْ جاهدةً بيديها المبقّعتين بلطخاتٍ بنّيةٍ أن تدفعَ بابَ الصالةِ الزُّجاجيَّ الكبيرَ بجهد عسـير وظهرٍ مُنحنٍ بثقلِ الهموم والفقر، وولجت أخيراً صـالةَ السـعادة للأواني المنزلية الكائنةَ على ناصـية شـارع الحزام العريض، ذلك الشـــارع الذي كان يلتفّ حول مدينة القامشـــلي كحلقة دائرة الشـــيطان التي كان يلعبُ بها الأولاد الصغار وهم يخطّونها حول بعضهم برأس عصا رفيعة، كانت تحتضن صُرَّتها الرماديةَ، وتضمُّها بينَ ذراعيها المُتصالبين فوق صـــدرها بحرارة وموّدة، وقد ظهرت يومها بهيئة امرأة شبحيّة، كخيطٍ أسودَ رفيعٍ لا يصلح حتى لخياطة رُقَعٍ ممزَّقة من الثياب البالية، فنال التعبُ والإرهاق نصيباً لا بأس به من

جسـدها المرهق بقَطْعِ المسـافات الطويلة يومياً، سـاحباً من ذلك الجسـم عبير رحيقها النضـر، وأزالت منها تلك الظروفُ الصـــعبة والزمنُ ما تبقّى من تضـــاريس جســـدها المميز بهضـــابها العالية، ومنحنياتها البارزة، والتواءاتها المتعرّجة، وماصّةً جميع عناصر أنوثتها المتألقة منذُ عهد الصِّبا.

فيما مضـــى كانت قِبلةً للناظرين، فلم يُبقِ لها اليومَ الحظُّ التعِسُ سـوى حفرتين غائرتين، حيثُ طُبِعتا كوسـم في كِلا طرفي وجنتيها، وتَرَكَ لها فماً خالياً من الأسـنان يشـبه سـرداباً مظلماً، لتدفع ما عليها من حسـابٍ ضـريبةَ الخلاف الزوجيّ، على مرّ تلك الأعوام الثقيلة.

***

رحّب بها صاحب الصالة قائلاً:

_ أهلاً (حياة).

فردّت بوجهٍ شاحبٍ:

_ أهلاً (كليم).

_ قد طال غيابُكِ هذه المَرّة، أين كنتِ كلَّ هذه المدة الطويلة؟

كانت متردّدةً في البداية ثُمَّ أجابتْ:

_ مررتُ بظروفٍ صعبة، قاسية... ماذا أقول لكَ لا أعرف؟

_ المهمُّ حمداً لله على سلامتكِ.

_ سلمتَ.

ثُم طلبت بفمها الذي يشبه السرداب المظلم المالَ قائلةً:

_ عطيّة من أجل الله.

فتح (كليم) دُرْجَ الطاولة وأخرج بعضاً من المال، ثُمّ قال لها:

_ تفضَّلي.

بَعْد مدّةٍ من الصمت تابع صاحبُ صالة السعادة:

_ هيّا خُذيه.

أطرقتْ (حياةُ) برأسها نحو الأرض ثُمّ ردّت بامتعاض:

_ لا أريد مالاً، ألا ترى معي أنّي أســـتحقُّ شـــيئاً له قيمته؟ فقد طال غيابي عنك كثيراً هذه المرة.

رفضتِ المغادرةَ، وبدأت تبحث في جميع أنحاء الصالة بهمّة ونشاط. إنّ أسوأ ما في الأمر أنّ (حياةَ) المتسوّلةَ هي عكسُ كلِّ المتسولينَ لا ينفعُ معها اللطفُ والمجاملة، لذا كان (كليم) يســـتعملُ معها التهديد والوعيد أو ينذرها بالطرد من المحلّ. إنّها لم تتغيَّرْ قَيْد أُنمُلة، منذُ أن عرفها ســـابقاً بالماضـــي، ولا بالحاضـــر حتى هذه اللحظة التي تقفُ فيها أمامه الآن، بســلوكها وليس بمظهرها، لا تقبلُ بكلّ الأشــياء التي تقدِّمُها لها، أي لا ترضى بما تعطيها أو تتصدَّق عليها بالإحسان، تريد أن تختار عطيّتَها بنفسها، وترفض بشدّة أن تختار لها بأيّ شـكل من الأشـكال، ومن عاداتها التي تتميّزُ بها الإصرارُ والإلحاحُ المتواصلانِ حتّى تحصلَ على بُغيتها، مستعملةً أسلوب السياسة الميكافيلية: "الغاية تبرِّرُ الوسيلة"، لا اســـتســـلام ولا انهزام ولا تراجع، تســـتنفدُ جميع طاقاتها الروحيةِ الكامنةِ حتّى الرمق الأخير، في ســـبيل الاســـتحواذ

عليها، فتبدأ بعمليّة البحث منذ أن تطأ قدماها أرضيّة صالة السعادة للأواني المنزلية، ويمكن القول: حتّى لحظة خروجها منها، حيثُ ترشقُ بشذراتها البصرية على شكل شظايا مُتكسّرة جدرانَ الصالة الممتلئة بالبضاعة، ثُم تمسح بنظراتها النهمة في جميع الجهات، مُلقية بتلك النظرات الفاضحة على أصناف البضائع المتنوّعة التي تمرُّ بها سواءٌ أكانتْ مَصفوفةً بترتيب على الرفوف، أم مُلقاةً بعشوائية على الأرض، فتبحث وتفتِّش بمهارة الحاذق بينها، وتُمرّرُ بأصابعها المُتيبِّسة على مختلف الأصناف، حتى تجدَ بُغيتها، وعندما تجدُها أخيراً، تطالبُ بها على شكل عطيّة، أو صدقة، ثُم تهتف من آخر الصالة بأعلى صوتها، وتعلن بوجد ونشوة عمّا وجدته:

_ لقيتُ بُغيتي أخيراً.

تقدَّمَتْ نحو الطاولة التي كان صاحبُها جالساً خلفها في مقدّمة المحلّ، ووضعت طنجرة التيفال الحمراء الصغيرة على الطاولة، ثُمّ ابتسمت قائلة:

_ ألَا تعطيني هذه الطنجرة؟

وتابعت:

_ فأنا أريدها منكَ زكاة مالك.

قال الرجل للمتسوّلة العنيدة مُجدَّداً:

_ لن أعطيَكِ الطنجرة، خُذي المال واذهبي من هنا يا (حياة).

سألتْه (حياةُ) بخوف:

_ لماذا؟

_ منذُ أن عرفتكِ، أنتِ هكذا، لا تقبلين بأيّ شيء.

قالت (حياة):

_ ولكن.

_ ولكنْ ماذا؟

_ لكنّ قلبي تعلّق بهذه الطنجرة الحمراء الصغيرة، وإنْ لم تُعطِني إيّاها فلن تهنأ بالنوم هذه الليلة.

تأفّف عندها (كليم) عدّة مرات:

_ شحّاذٌ ويشترط!!

توسّلت إليه الشحاذة (حياة) قائلةً:

_ من أجل الله، إنها تلزمني للطبخ.

فأجابها بنفاد صبر:

_ إنها غالية الثمن يا (حياة)، إنّها من التيفال الأصليّ.

_ أعطِني إيّاها، وسأدعو لك.

_ كيف؟ لم أفهم.

قالت المتسوّلة في تأكيد:

_ دعائي مُستجاب.

_ مزحة لطيفة أليس كذلك يا (حياة)؟

_ أنا لا أمزحُ معكَ.

_ هل تُصدّقين إذا صارحتكِ أنّ لديّ شركاء في هذه الصالة؟

_ مُشاركة بالمال؟

_ نعم بالمال.

كان يعرفها جيّداً، من سابع المستحيلات أن تتراجع عن توسّلاتها المتواصلة، وإلحاحها المتكرّر حتى تحصل على طنجرة التيفال قائلةً له:

_ أحببتُها، وأنا بحاجةٍ ماسّة إليها.

لا سلطانَ على العضلة القلبية الكبيرة المختبئة تحت أضلاعه، مضخّةِ سائلِ الحياة الأحمرِ الذي يوزّعه إلى أعضاء الجسم كافّة، لقد فقد القدرة والصمود على مواجهة واقع الحاجة التي كانت المرأة المتسوّلة تسبحُ في مستنقعه الآسن، وفي لحظة واحدة أو اثنتين، انهارت جميع أساسات جدران ذاتهِ المقاومة، أمام عِناد طلب (حياة) الشحّاذة، عندما أطلقت عليه بقسوةٍ مُفرِطة، رصاصتينِ مُتتاليتينِ، حارقتينِ مُحرقتين، كانتا مُدّخرتين في مخزن مُسدس كلماتها، واندفعت كلِمتا الحاجة والحبّ كطلقتين مؤثّرتين وجارحتين من الفوّهة بسرعة فائقة، وفي توقيتٍ واحد، وعلى نغمةٍ واحدة من التأثير والحِدّة، من دون مَيلٍ أو انحراف، كاسرتين قاعدة إطلاق ميلان القواذف في الجوّ، وأصابتا هدفهما بدقّة

عالية، فاخترقت الأولى منطقة وعيه بُوميض لامع، وأيقظت ضميره الحارسَ الراقدَ في سكرة النوم، الواقفَ ما بين منطقة الوعي ومنطقة اللاوعي، ثُمّ وجدت طريقها بكلّ سهولة في ممرّات رأسه المُتشعّبة، واستقرّت بالنهاية في منطقة لاوعيه في غرفة الكراكيب غير المُستعملة، واجتازت الثانية سور قلبه الصدريّ ونفذت إلى سويداء قلبه الحديدي فخمدت على إثرها ثورةُ أعصابه الهائجة، وبردت من لُجّة دمائه الحارّة، وقال (لحياة) تحت إرادة مستسلمة:

_ خُذيها صدقةً، ولكن لاحقاً، لن تنالي منّي شيئاً، إلّا بعد مرور سنة أو أكثر عليها.

***

لقد نكص الحاضر، ما كان راكداً في الماضي، وومضت ذكرى بعيدة في ذهن الرجل، كانت الساعة آنذاك الرابعة والنصف أو ما فوق بقليل، باتت فيها الأجواء شبه مُعتمة ذلك اليوم، حيثُ نهاراتُ الشتاء كانت قصيرة الأجل، وكان ليلُها مملّاً طويلاً جدّاً، في ذلك المساء أطلقتِ السماءُ

الرماديّة البيضاءُ العِنانَ لذخيرتها العشوائية، من نُدَف الثلج الصغيرة والكبيرة، وأتاحت لها أن تلعب لعبتها في زوابع الرياح المخروطيّة، وأراد القَدَرُ أن يشاهدَها، تحت أضواء العواميد ذات الإنارة الخافتة التي كانت تنتصب بشموخ وكبرياءٍ متواضع على رصيف الشارع، كان الرجلُ ينتظر وقتها واقفاً أمامَ موقفِ سياراتِ الأجرة من أجل الذهاب إلى بيته، وكلّما تقدّمت عقارب الساعة وجرت ثوانيها ودقائقها وراء بعضها من دون أن تملّ وتكلّ في جريانها، كانت تزداد معها بوتيرة متصاعدة حِدّةُ إطباقِ أصابعِ البرودةِ والتجمُّدِ الخناقَ حول رقبة الرجلِ الواقفِ هناك صاحبِ صالة الأواني المنزلية (كليم)، فتقلّ فرصته من الإفلات والصمود، أمام عناق غزو موجة الألم التي كان يتلقّاها بجرعات خفيفة، فتخدّر معها جميعَ أعضاء جسده بهدوء، وكان ينظر من حوله، فيجد الشوارعَ أغلبَها مقفرةً، حيثُ هَرِع عابرو السبيل باكرين إلى مأواهم، هرباً من الجو العاصف، وكان أغلب أصحاب المحلات في السوق قد أقفلوا محلّاتهم أيضاً،

اســـتعداداً للرحيل إلى منازلهم الدافئة... وفي غمرة الانتظار اليائس، لوصـول نجدة من سـيارة أجرةٍ تقلّه إلى بيته البعيد، أحسّ (كليم) بتيبُّس أصـــابع قدميه على الرصـــيف المتجلِّد؛ لأنّها المنطقة الأولى التي تلامس الأرض الباردة، وقد فرّتِ الروحُ من أصـــابع قدميه طائرةً عبر الفضـــاء الرماديّ، ثُم تحسّس بأصابع يديه المرتجفة من شدّة البرودة ما كان في حوزته من مال، فظنّ أنه لقي منه شـــيئاً قليلاً، فأعطاه ذلك شعوراً بالأمان وانطباعاً بالدفء وقتها، لإيصاله من السوق إلى البيت من دونِ متاعب؛ لأنه كان بعيداً عن مكان إقامته الآن بخمســـة آلافِ مترٍ تقريباً، حيثُ لاح لهذا الرجل ضـــوءٌ خافتٌ من بعيد، فأشـعره بفرحة عارمة تعصـفُ بكيانه، ولكنْ سُـــرعان ما خاب أمله وخاب ظنُّه، وتلاشـــت فرحته ســـريعاً وتلوّى كخيطِ دخانٍ ضـــعيفٍ في الهواء البارد، وخَبَا معها ضوءُ سيّارةٍ لاح له من بعيد، لم يعرف قطُّ مِن أين ظهرت له تلك العجوزُ الشمطاء، كانت ترتجف وتهتزّ أمامه مثلَ شجرةٍ يتيمة نبتت في صـــحراءَ قاحلةٍ، تلعب بها رياح السَّـــمُوم من

جميع الجهات، لقد زرعها القَدَر أمامه في تلك اللحظات، كانت في حُلَّةٍ رثّةٍ مهلهلةٍ يومها، وتقدَّمَتْ بخطواتها المتعثّرة نحو (كليم) المذهول، ثُمّ قالت له بغُصَّـــة في حلقها، ودمعة متجلّدة على خدّها:

_ أريد منكَ قليلاً من المال يا بنيّ؛ لأنني جائعة، جائعة إلى حدّ الموت، ولم أتناولْ طعاماً منذُ ثلاثةِ أيّامٍ.

لقد وَجدَتِ الشمطاءُ أخيراً ما كانت تبحثُ عنه، فرمت بصَنّارتها وتأملت ما سيسفر عنها من نتائجَ إمّا أن تصيب أو تخيب_ دعونا نرى_ فلم يتحمّلْ سمعُه قساوةَ إيقاع رنين صـــدى كلمة الجوع الكافر التي كانت تتردَّدُ أمامه في ذلك البرد القارس، ومن فم امرأة طاعنة في الســـنّ، أثارت في نفسه زوبعةً حادّة من الشفقة والعطف عليها، لقد وضعته قسراً تحت اختبار قاسٍ، فتقلّب وتردّد (كليم) كثيراً محتاراً بين خيارين أحلاهما مُرّ، إمّا أنْ يعطيَها ما بحوزته من مال، أو يُعفِيَ نفســـه من هذه المهمّة الصـــعبة، ومن ثَمَّ الاختفاء والفرار منها إلى الأبد، صـــحيح أن الخيارات أحياناً تبدو لنا

قاســيةً وصــعبة، ولكن ليس بصــعوبة تجربة اختبار حِمار (بوريدان)، وبَعْدَ التخلّص من حالة الإرباك والفوضـــى التي كان الرجلُ عليها، طغى عليه وحيٌ ســماويّ وصــفاء، حيثُ اســـتقرّ به الرأي أخيراً، فمنحها ما لديه من مال، من أجلِ مساعدة امرأة عجوز كانت جائعة، ظهرت له من العدم، لكنَّ الشيْءَ الذي تهيّأ له أنّه أنقذَ ضميرَهُ من هلاكٍ محتوم، مقابل التنازل عن راحة جســـده، وبعد أن أعطاها ما لديه من مال راحتِ الأرضُ من تحت قدميهِ تكتسي بياضاً حليبيّاً وتتكسّر، ثُمّ تابع حاتمٌ الطائيُّ مشواره من السوق إلى البيت مشياً على الأقدام، تحت قســـوة كاملة من دوّامات كرات الثلج الكبيرة والصــغيرة المتســاقطة فوق رأســه العاري، تهاجمه، تدهمه، تســـحقهُ ولا ترحمه بتاتاً، لكي ينام ليلته العاصـــفة مرتاح الضمير والبال.

***

لا أبالغ في القول عندما أقول: إنّ عدد المتســـوّلين وعددَ الجراد أصــبحا متســاويين، في كفّة قســطاس واحدة،

والاثنان يشـكّلان الخطر والضـرر في مُحيطهما المعيشـي، الأول آفة تفتك بالمجتمع وتتطفّل عليه، والثاني آفة على الطبيعة وتفتك بالزرع، وبما أنّ المتسـوّلةَ (حياةَ) تتردّد دائماً على صالة السعادة للأواني المنزلية، فسيكون (كليم) أسيراً لتدفُّق عواصف من ذكريات الشحّاذين، تصبُّ بغزارةٍ شديدة على مُخيّلته الجامحة، وتكون على أشـكال صـورٍ مختلفة. كانت تلك الصـور تتدفَّق وتتقلَّبُ في ذهنه باسـتمرار، فدائماً ما كان يدفعُ للمتسـوّل المزيد من المال بدافع من فضـوله الزائد، يدعوهم إلى الجلوس والحوار، مُقدّماً لهم فنجاناً من القهوة المُرّة والماء البارد، وذات يومٍ دخل إلى المحل رجلٌ طويلُ القامة، نحيفُ الجسم، أبيضُ الشَّعر واللحية، ثمّ بادره بالطلب:

_ صدقة لأجل الله.

طلب إليه (كليم) أن يجلس على الكرسيّ القريبِ منه، ثُم قدّم له فنجاناً من القهوة قائلاً له:

_ تماسَك يا رجل.

لم يحر جواباً.

_ ما اسمُك؟

_ (بشير الطائر).

_ اسم جميل أليس كذلك؟

_ أنت الأدرى.

ابتسم صاحب المحل ابتسامة خفيفة، وقال له:

_ طائر ولك جناحان، وتبحثُ عن رزقك بين وحوش الأرض، بينما صدر الآفاقِ الواسعة مفتوح لكَ!! يا لكَ من غبيّ!! الطيور بمختلف أنواعها كانت طواطم للعبادة المقدسة، في القبائل البشرية الأولى، وكانت جميع الطيور تلتقط رزقها بيسر، بعيداً عن الذلّ والتطفُّل، فكيف أنت طيرٌ وطوطم وتعيش ذليلاً ومتطفِّلاً وعالةً على الناس والمجتمع؟

كان (كليم) ينظر إلى الطائر وهو يرتشف القهوة بارتياح، ثُمّ سأله:

_ وكم عُمرك؟

_ تقريباً على حافَةِ الأربعين.

_ أنت رشيق كالغزال.

اهتزّ (بشـير الطائر)، ورشـف رشـفة أخرى من القهوة المُرّة، ثُم فقد راحته عندما سأله صاحب المحل:

_ ولماذا اخترت مهنة الشحاذة يا (بشير)؟

_ أنا مُجبَر.

_ أخبرني، ما الذي أجبرك عليها؟

_ المرض.

_ أيّ مرض؟

_ التهاب الكِلى، وفقر الدم الغذائيّ.

اخترق (كليمٌ) عيونَ (بشيرٍ) الذابلةَ والناعسة، واقترح عليه حلّاً لأمراضه قائلاً له:

_ تناول مشـروب المتّة، وأكثِرْ من تناول الخضـروات والبيض يا (بشير).

وضـع (بشـير) كأس القهوة المُرّة على الطاولة بجهد، بعد أن كاد يفلت من بين يديه، ثُم حدّق فيه بذهول، فباغته صاحب الصالة بسؤال آخر:

_ ألا ترى معي أنّ العملَ أفضـلُ دواء لعلاج الأمراض المستعصية، وكذلك يُعدّ أفضلَ الحلول الناجعة للقضاء على الخمول والكسل والمرض؟

فقال الطوطم:

_ بلى.

_ ولماذا تطلب باسم الله؟

_ ولكن أطلب باسم من؟

_ اطلبِ الحاجةَ باسمكَ.

_ ولماذا؟

_ لأنَّ اللهَ غنيٌّ، وليس بحاجة إلى المساعدة.

_ أستغفرُ الله، أستغفرُ الله.

_ اسمعني يا طائري الجميل، بالعمل يكسب الإنسانُ النقودَ، أما أنت فلا تعمل، وتطلب النقود باسم الله، أنا أعرف جيّداً أنّك تعزف ببراعة فائقة على أوتار الموسيقا الإلهية المؤثّرة، لتغوص بعيداً في أغوار النفس، وتحرّك المشاعر والأحاسيس البشرية الراكدة، أليس كذلك يا (بشير)؟

ابتسم الطائر وقال:

ـ الله أعلم.

ـ وأنا أعلم.

صمتَ (كليم) قليلاً ثُم ناداه متلاعباً بالكلمات:

ـ يا (بشير).

ردّ الطائر:

ـ نعم.

ـ هل تعرف لعبة الكلمات على سبيل التسلية؟

سأله (بشير) وهو يحدّقُ به مُندهشاً:

ـ كيف؟

ـ أحقّاً يا (بشير) لا تعرف؟

ـ لا.

ـ تريد أن تلعبَ؟

ـ نعم.

ـ وإذا علّمتكَ، ألن تزعلَ منّي مهما كانت النتيجة؟

ـ علِّمني، ولن أزعلَ منك، مهما كانتِ النتيجةُ.

_ أأبدأُ إذاً؟

_ ابدأْ.

بدأتِ اللعبةُ مع (بشـــير) برشـــقه كلمات من العيار الثقيل، فقال له (كليم):

_ بشـير حقير، بشـير خنزير، بشـير هرير، بشـير بشكير، بشير حرير، بشير نذير، بشير هدير، بشير شرّير، بشير كفكير، بشير صرير، بشير زفير، بشير خبير، بشير زمهرير، بشير مرير، بشير مُدير...

بشـير شـكسـبير، بشـير صـغير، بشـير فقير، بشـير كبير، بشير شخير، بشير جعير، بشير جرير، بشير صفير، بشير وزير، بشير مصير، بشير نكير، بشير حصير، بشير مسير...

وقبْلَ الانتهاء من لعبة الكلمات كاد (بشير) المسكين أن يفقد صوابه ويجنَّ، فصرخ عالياً:

_ كفى... كفى.

ـ (بشـير) لم ننتهِ من اللعبة بَعد؛ لأنَّ هناك أسـماء كثيرةً على وزن اسـم (بشـير)، وبعدها يمكننا أن ننتقل إلى اسم الطائر، برأيك نستمر أم نتوقّف؟

ـ أرجوك توقَّفْ.

ـ حاضر.

وبدا التململ والضـجر على وجه المتسـوِّل الرشـيق (بشـير الطائر)، وهبَّ واقفاً، وكأنّ لعبة الكلمات لم تُعجبه بتاتاً، ثُم طلب الاستئذان والرحيل، وانصرف.

***

قليلات هنّ اللواتي يشـبهن (حياة) المتسـوّلة التي بقيت محافِظةً على عفَّتها وطهارتها، ولم تتهاوَ إلى مستنقع فعل الرذيلة؛ لأنها كانت من الحالات النادرة بين قريناتها المتسوّلات في المهنة، باستثناء حالة الاغتصاب القسرية التي تعرّضت لها من دون إرادتها.

فمن المؤسف أن كثيرات من المتسوّلات أمثال (حياة) يبدأن بالتسـوُّل ثم ينحرفنَ بسـبب ضـعفهنَّ وحاجتهنَّ

واختلاطهنَّ بأصنافٍ شتّى من الرجال، ولا سيّما المستغلّين المتصيّدين، وقد صدق من قال: «الفقر يؤدي إلى الرذيلة»، فالفقيرة التي لا تجد ما يسدّ رمقها يسهل انتهاك حرمة عرضها، ناهيك عن كثير من حالات التغرير بهنّ والوعود الكاذبة التي يوعدْنَ بها، ما يقودهنّ على الأغلب إلى ممارسة الدعارة الخفية بعد التورّط للمرة الأولى، فبجهد أقلَّ يمكنهنّ الحصول على مال أكثر.

إنَّ معركةَ الحصول على طنجرة التيفال الحمراء الصغيرة التي جرت داخل صالة السعادة، والتي بدأت منذُ قليل بين (كليم) صاحب المحل وبين (حياة) المتسوِّلة، انتهت لصالحها قَطعاً، ولكنه تفاجأ بقرارها الأخير، فبدلاً من أن تفرَّ (حياة) بالطنجرة الثمينة، رآها تُنزل صُرّتها الرمادية على الأرض بجانب الكرسي الذي كان يجلسُ عليه أمام الطاولة، ثُم زفرت وتنهّدت بِعُمق قائلةً:

_ ليباركك الله على هذه العطية، ولن أنسى معروفك هذا معي أبداً، وسأدعو الله الكريم أن يبارك مالك أضعافاً.

ردَّ عليها غاضباً:

_ نلتِ مُرادكِ أخيراً.

قالت (حياة) باطمئنان:

_ نعم.

_ هيّا ارحلي يا (حياة)، هل ترغبين في شـيء آخرَ غيرِ تلك الطنجرة؟

ابتسمتْ بفمٍ خالٍ من الأسنان وردّت:

_ كلّا.

_ ولكنني أراكِ ارتحتِ في جلستكِ.

_ حقّاً؟ ألا تريد أن تسمع قصتي؟!

_ قصّتكِ؟!

_ بالطبع قصّتي أنا.

_ إذا كانت واقعية، فأنا جاهز للاسـتماع إليها حتى النهاية، وإذا كانت من وحي خيالكِ، فلا أريد أن أسـمعها؛ لأنني سئمتُ من قصص الفانتازيا والخيال التي أسمعها من أقرانكِ كلَّ يوم.

_ هكذا إذاً؟!

_ نعم.

_ اطمَئِنَّ يا (كليم)، إنّها قصّة حياتي التي جرت معي من قَبل، حتى هذه اللحظة التي أقفُ فيها هنا أمامك.

_ ماذا تشربين؟

_ لا أريد شيئاً غير الماء.

عندها نهض (كليم)، وتوجّه نحو اللوحة المعلّقة على الباب الزجاجي الكبير للمحل، وأدار كلمة (مغلق) نحو الخارج بدلاً من كلمة (مفتوح)، وناولها قِنّينة المياه الطبيعية قائلاً:

_ تفضّلي.

_ أشكركَ.

_ بالصحة والعافية يا (حياة).

ثُمّ قال لها:

_ فلنبدأ يا (حياة).

_ أأبدأ؟

_ لا تؤاخذيني يا (حياة) فأنا فضوليّ زيادةً عن الحدّ، هل يمكنني أن أسـألكِ سـؤالاً ظلّ يلحّ طَوال الوقت على بالي قبل أن تسردي عليَّ قصّتَكِ الواقعية؟

_ اسألْ يا (كليم) المبارك.

_ أريدُ معرفة محتويات صُرّتكِ الرمادية.

ابتسمت (حياة) وقالت:

_ صُرَّتي مليئةٌ بالهمِّ والحزنِ والغمّ.

***** *** *****

21آذار/مارس الساعة التاسعة والربع صباحاً

الطلاق

افتتحتْ (حياةُ) قصّتها بوصف زوجها (سميح الدبوس)، بأنّه عريض المنكبين، مفتول الشاربين، قصير القامة، ضامر البطن، وله وجه طويل، وذو فكّ بارز، وقد بلغ الثلاثين أو أكثر، في حين هي في مطلع العشرين، كان أكبرَ منها بحدود عشر سنوات، وكان الفارق طبيعياً عندهم في البلد، فالفتاة التي تبلغ الثلاثين، أو حتى أقلّ من ذلك يقولون فاتها القطار، وتبقى فرصةُ العنوسة أمامها واسعةً، أو ربّما عليها أن تتزوجَ برجل ماتت زوجتُه، أو ربّما برجل طاعن في السنّ.

تزوّجتْ (حياةُ) الدبوسَ بعلاقة حبّ، حبّ استمرَّ سنة قبل الزواج، وكان يحبّها بكل جوارحه، وكانت تُبادله الشعورَ نفسه، ولم يسِئْ إليها في بداية علاقتهما الزوجيّة، وكانا يُغرّدانِ كطيرينِ عاشقينِ ينتقلان من شجرة إلى أخرى،

سابحَينِ في أعماق بحورِ العشقِ والغرام، حيثُ لا يشعران بمرور الوقت، وكانا يستلذّان بطعم جميع الأشياء التي كانت تحيطُ بهما، وكان لكلِّ شيء مذاقُه الخاصُّ إلا غير تلك النظرات من الحُسّاد التي كانت تلاحقهما بين فَينة وأخرى، وكانت (حياةُ) ربّةَ منزلٍ مُخلِصة، وكانت ملتزمةً كزوجة بتنفيذ واجباتها والتزاماتها نحو زوجها ونحو بيتها على أكمل وجه، وما كان هناك شيءٌ ينغّص عليهما حياتهما الهادئة والمستقرّة، ومن شِدّة فرحتها وسرورها بذلك الزواج، علّقت (العين الحاسدة) على كلّ باب من أبواب بيتها، ووضعت سورة (يس) تحت مخدّة سريرهما في غرفة نومهما، لقد احتاطتْ وتسلّحتْ بهذه الطقوس المقدَّسة خوفاً من شرٍّ مستطير قد يزعزع أو يُطير أركان عشّهما الزوجيّ الآمن، ويقتلعُ جذور حُبّهما المتنامي من أعماقه البعيدة.

كان زوجها يعمل في مهنة تجارة البذور ومستلزمات الزراعة من أكياس فارغة وسماد كيماويّ، وكانت تدرُّ عليه أرباحاً فاحشة؛ لأنّ التجارة لِمَن يتقنها مهنةٌ مربحة تبلغ

بصـــاحبها أن يتربّع على عرش الثراء ســـريعا، وكانت تتذكَّر قول أبيها –وهي طفلة– إن اليهود يُفضّلون التجارة على كلّ شـــــيء، لأنها تدرُّ عليهمُ الأموالَ الطائلة، وأغلبُ التجارة العالمية بالدولار، وعلى فئة الدولار الواحد مكتوب اســـم ماسون، ومحفورة صورة الهرم الماسونيّ، وفوق قِمّة الهرم صورة العين التي تشير إلى أنّ العالَمَ كلَّه تحت أنظارهم، ولا يخفى عليهم دبيبُ حركةِ نمل وهي تتحرّك على الأرض. ومع مرور الأيام حينما أخذتْ تعي ما حولها، سألتْ والدها: لماذا كلُّ أقاربك لديهم ســـندات ملكية للأراضـــي الزراعية إلا أنت؟ فأجابها: إنّ الأرض التي أعمل فيها أرضٌ مســـــتأجَرة، تعود ملكيتها لليهود، ثُم يستأنف بقول مقتضب: «مكيدة يهودية». وبعد هذا الاســـتطراد الذي أشـــعرها بملل (كليم) عادت تمجّد حياتها الزوجية حينما كانت في بدايتها، وبأنها كانت تعيش وزوجها (ســـميح الدبوس) في رغد وبحبوحة من العيش ولا ينقصـــهما شـــيء غير رحمة الله، ولم يكن زوجُها بخيلاً ولا مُبذّراً، وكان رجلاً معروفاً ومحترماً أينما ذهب، وكلّ الناس

كانوا يبادلونه الاحترام والتقدير، وكان يحبّها ويحترمها بالقَدْر ذاتـه، ولكنّ الفرح لا يـدوم، "وكـل نعيم لا محـالـة زائـل" كمـا يقول الشـاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة، و"لكلّ شـيء إذا ما تمّ نقصان" بحدّ تعبير الشاعر الأندلسي أبي البقاء الرندي. فما إن ولدت طفلتها الأولى (آية) حتى أخذت الأمور تتغيّر، وأخذ الخلاف يدبُّ تدريجيّاً، وقد لاحظتْ عليه تغيُّراً مفاجئاً، فقد كان (سميح) قبل أن يأوي إلى الفراش، يبدأ طقوسه المسائية بمشـــاهدة أفلام "البورنو غراف" الخلاعية ذات الدِّقّة العالية (ثري دي)، كانت (حياة) تُشـــيحُ بوجهها عنه متهرّبة إلى ناحية مهد طفلتها الصـــغيرة (آية)، وأحياناً كانت تنظرُ إليه خلسـةً بطرف عينها، حيثُ يسـتشـيط غضـباً وحنقاً عليها، وكانت عيناه تحتقنان كمصهور بركانٍ يُريدان صهرها وإذابتها فيهما؛ لأنها كانت دائماً ترفض أن تشاركه المشاهدة، ولكنّه أصـــبح مُدمناً على المتابعة اليومية تقريباً، وهي تعرف حقّ المعرفة أنه متضايق دوماً، وكانت تسأله بمكر:

_ ما الذي يضايقك يا حبيبي؟

كان لا ينظر إليها أبداً، ويظلّ مُحدّقاً في شاشة الجوّال من دون أن يرفع رأسه عنها، ثُم يغمغم:

_ لا شيْء.

تردُّ عليه:

_ عليَّ أنا يا (سميح)؟

_ وماذا تقصدين بذلك يا امرأة؟

_ أنت تعرف.

كلُّ ما أشيع عن عناد البغل لا يساوي شيئاً أمام عناد (ســـميح)، فلم يكنْ يتنازلُ ويتحدّثُ معها وجهاً لوجه، ولا يلتفتُ باتجاهها، ولم يكنْ يصـــارحُها بالحقيقة الآثمة التي كانت تعتمل في صدره، فكان يكتفي بالقول:

_ الإنسان دائماً في حالة التغيُّر.

_ ولكن ليس بهذه السرعة!

_ هذه مشكلتكِ.

وذات ليلة من ليالي الشـــتاء الحالكة كانت تبدو على (ســـميح) أمـارات القلق والتوتر، وكـان يتقلّـب في الفراش

كملدوغ، فتصدّع جدار الصبر لديه وانهار فجأةً فسألها بنفاد صبر:

_ هل أنتِ نائمة يا (حياة)؟

_ كلّا.

فجلس (سميح) وسألها:

_ هل أنتِ مستعدّة أن تسمعيني إلى النهاية؟

_ طبعاً.

لقد ضاق ذرعاً بما خبأه في صدره طَوال هذه الشهور المتتالية، وحان وقت مُكاشـــفةٍ علنيّة أو جلســـة علنيّة أو جلسـة حسـن نيّة، بالنهاية سـمِّها ما شـئت، هذا ما توقّعَتْه منه منذُ البداية، فباشَـــرَ بالموضـــوع من دون مقدّمات، وفاجأها بسؤال لم يكن ليخطر ببالها:

_ ما رأيكِ بالجنس الفموي؟

نظرت إليه (حياة) نظرة المذهول المندهش، وقالت له:

_ تريد رأيي بالجنس الفموي؟

_ نعم.

_ لا شكَّ أنه حرام ومكروه.

استشاط (سميح) غضباً، فقال لها:

_ ومَن حشا دِماغَكِ بهذا الهُراء الفارغ الذي لا معنى له؟

كان ردّها فوريّاً وسريعاً:

_ سمعتُ من الآخرين.

لم يقتنع بردّها، وبدا غاضباً جدّاً، ثُمّ قال:

_ حدّدي.

_ من أيام المدرسة، وفي حصّة التربية الدينية، ومن الشارع والأهل والأصدقاء معاً.

_ لقد استمعتِ إلى أحاديث الغوغاء والجهلاء.

_ ألا تخافُ من العدوى؟

_ أؤكّد لكِ أن صديقاً أخبرني أنه كان يمارس الجنس الفموي مع زوجته منذُ بداية زواجه، ولم يُصَبْ بأيّة عدوى.

_ ها أنا، أقتنع بصواب رأيك، ولا وجودَ للعدوى.

_ آه وحمداً لله، أخيراً عرفتِ، أنه لا يوجد عدوى.

_ طيب. ألست مُسلماً؟

ضحك (سميح) ضحكاً مُجلجلاً، وقال:

_ أصلاً الإسلام سمح بذلك.

_ وما دليلك؟

_ آية قرآنية.

_ ما هي؟

_ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

_ كفى... كفى... ارحمني... ارحمني، أنا لا أستسيغ هذا التصرف الشاذّ.

حاولت (حياة) تقديم الحجج والأعذار التي تمنعها من ممارسة هذا السلوك غير السويّ الذي تمجّه نفسُها لِتُقنعه بصرف النظر عن ممارسة هذه العادة المقرفة لها، لكنّه كان يلتفّ من حولها كشيطانٍ رجيم، ويحاول إقناعها بأية وسيلة مهما كانت، ثُمّ نظر في وجهها نظرة غضب وقال لها:

_ قسماً إذا لم تنفّذي لي رغبتي هذه فسأضربك ضرباً مُبرّحاً، وسأهجرك في الفراش إلى الأبد.

حاولت (حياة) التملّص والتهرّب منه، فازداد عِناداً وإلحاحاً على طلبه، وهدّدها بالطلاق وبحرمانها من أبنائها، فاستجابت لطلبه مُرغمة مقهورة، ففي بعض الأحيان نتنازل عن مبادئنا ونتخلّى عن بعض قيمنا خوفاً على مَن حولنا، ولا سيما الأولاد؛ فقد تذكّرت طفلتها الصغيرة (آية) المحتاجة إلى رعايتها، وكذلك كانت تضعُ في الحُسبان سمعة أهلها بين الناس، فالمرأة المطلّقة في مجتمعنا سمعتها غير محمودة، وإن كانت ذات حقّ وطليقها على الباطل، فيبقى الحقُّ كلُّه على الزوجة، وتبقى هي الآثمةَ والمذنبة دوماً في نظر الناس.

وعلى الرغم من استجابتها لرغبته الدنيئة فقد كان يُثيرُ هذا العملُ المُقرف في نفسها الغثيانَ والتقيُّؤ، وكانت تُحسّ بداخلها أنها انقلبتْ من امرأة شريفة طاهرة، إلى امرأة

وضـــيعة عاهرة، وكانت تشـــعر كأنها تتعرض إلى عملية اغتصابٍ قسرية.

كان صـاحب طنجرة التيفال الحمراء الصـغيرة يسـتمِعُ إليها بشغف مصحوب بحزن وأسى على حالها، فالتفتت إليه (حياة) وسألته:

_ ما رأيك يا (كليم) فيما سمعت؟

_ تريدين رأيي بصراحة، وبلا زعل؟

_ لا، لن أزعل.

_ أراكِ بالغت كثيراً في تصـــوير فظاعة طلب زوجك، فالشـــرع لم يحرّم ما طلب منك، وترك الأمر للزوجين في ممارســـة ما يحبّان، وأنا من مؤيّدي طلبه، فالهدف من العملية الجنســـية بلوغ اللذة والنشـــوة، وكلٌّ له طريقته في تحصيل لذته، المهمّ أن يكون ضمن ضوابط الشرع والأخلاق.

_ ماذا تقصد؟

_ قصدي واضح.

ابتسمت (حياة) مُكرهة، وقالت:

_ يعني إذا طلبت منك امرأةٌ أن تفعل لها مثلما طلبَ (سميح) منّي فهل ستُلبّي رغبتها في ذلك؟

_ سأُلبّيها بكل امتنان وسرور.

غضبتْ (حياة)، وردّت:

_ إنّني أرى كلّ الرجال مُنحرفين.

_ وجهة نظر أحترمها، ولكن لا تغضبي مني يا (حياة).

_ وكيف، لا أغضب؟

_ العلّة ليست فيك يا (حياة) بل في مجتمعك الشرقيّ الذي غرس في عقول أبنائه كثيراً من المفاهيم الخاطئة، بل عتّمَ عليهم كلّ ما يتّصل بالجنس، وجعلها (تابوهات) يُمنَع الخوضُ فيها، ويُحظر توضيحها؛ فمنذُ الطفولة يحظرون علينا كلَّ ما يتعلّق بالجنس ولا يوضّحون لنا ماهيته أبداً، ولا يشرحون لنا آلية التعامل مع الجنس الآخر، إلى أن نصل إلى سنّ البلوغ، فنقع في حيرة بين رغبات أنفسنا وبين واقعنا ورغبات أهلينا وقيود مجتمعنا وأعرافه.

_ هذا شـــيء طبيعي، لأنّ تعاليم ديننا وشـــريعتنا، تفرض على الأهل تجنيب الأبنـاء الوقوعَ في المعاصـــي والمَهالك.

_ اســـمعيني. ســـأروي لك قصّـــة جارٍ لي، علّك تستنتجين منها العِبرة.

_ أسمعكَ.

_ كان لدى جارٍ لنا جُنينة، فيها أشـجار كثيرة، كانت تشبِهُ جنّة عَدْنٍ.

_ وبَعد؟

_ وكان فيها أصناف مُختلفة من الفاكهة اللذيذة التي لا تُقاومها الشهيّة، وكان يجري فيها فراتٌ عذبٌ.

_ مُصغية.

_ تصوّري، ماذا فعل جارنا البخيل هذا؟

_ ماذا فعل؟

_ وضـع في منتصـف جُنينته فزّاعة على شـكل رجل، صـنعها من القشّ اليابس، وألبسـها ثياباً سـوداء، كي يُفزع

الطيور، ويمنعها من أن تُغرد، وتأكل من فاكهة أشـجار جنّة عدْنه الأرضية.

_ وبعدها؟

_ وهكذا نحن، كلّما اتّقدت رغباتنا اشـــتعالاً، واقتربنا من فاكهة شجرة الجنس الناضجة والشهية، يمنعوننا بجميع الأساليب الترهيبية، ويقولون لنا: هذا عيب، وهذا حرام، وهذا منافٍ للأخلاق، وهذا لا يُماشـــي عاداتنا وتقاليدنا... ويستعملون معنا كلّ وسائل القمع والتضليل لصرفنا عن كثير من المُتع التي أحلّها الدينُ.

_ هل انتهيتَ؟

_ نعم.

_ دعني أكمل لكَ قصتي، فما سيأتي أعظم.

_ تابعي.

***

لقد توالتِ الأيّام والشهور على ذلك الحدث الذي كانت تُبغضـــه (حياة)، ثُم رُزقتْ بطفلين آخرين (آفين) و(فراس)

وكانت تعتقد أنها مع تقدُّم العمر والزمن سيعقل زوجها ويكفّ عن نزواته البهيمية ورغباته الشـــاذّة، ولكنّ الزمن زاده سـفالة، فقد تفاقمت حالته المرضـية، ولم يكتفِ بالممارسـة الفموية، بل تجاوزت مطالبه ســـقف الدين هذه المرّة؛ إذ طالبها بما هو أشـنع؛ طالبها بعمل لا تقرّه الأديان السـماوية كلها، وبما هو محظور في الشـــريعة الإســـلامية، طالبها بالممارســة الخلفية من الدُّبر، فتملّكتها قشـعريرة باردة، من قِمّة رأسها إلى أسفل قدميها، وقالت له بعصبية:

_ أنتَ شاذّ سافل.

_ اهدئي يا (حياة).

_ لا، لن أهدأ، إن لم تتراجع عن كلامك.

_ لا تضخّمي الموضوع فتجعلينه أكبر من حجمهِ.

_ عجباً!! هل تراه صغيراً؟

_ نعم.

_ وهل تعلم، أنه بمجرد ممارســـة وقوع الفعل من الخلف، أكون طالقة منك؟

نزل ردّها على رأســـه كقذيفة من العيار الثقيل، ففقد (سميح) السيطرة على أعصابه، وردّ منفعلاً:

_ يكذبون، لا طلاق.

_ يا (سـميح)، لا علاقة لي بالعالَم، ولن أحقّق لك ما طلبت، ولو على جُثّتي.

ردّ (سميح) عليها بِغِلٍّ شديد:

_ يا عاهرة، يا مومس... –وتلفّظَ بكلمات نابية أشــدّ ســفالة من هاتين الكلمتين– تُظهرين نفســك شــريفةً عليَّ، لأنني زوجُكِ، ولو كنتُ عشيقَكِ، لفعلتُ بكِ كلَّ شيء، ولَكنتِ استسلمتِ لي دون مقاومة، وانهال عليها بالضرب؛ ضربها بكلّ قسوة ووحشية مفرطتين، لأنّها لم تمكّنه من نفسها، ولم ينل بُغيته منها، فنامت بقلب مفطور وجسدٍ مُحطَّم.

وفي مساء اليوم التالي عاد (سميح) من العمل باكراً، يحمل في يده علبة صغيرة، وقال لها: أغمضي عينيكِ. نزلتْ عند رغبتـه وقلبها يدقّ في صـــدرها بعنف، ثُم قبَّلها من جبينها، ويعلم الله أنها لم تشـــعر بشـــفتيه، وإنما جفلتْ من

رأس لسانه الحادّ يلامس بشرتها الحريرية الناعمة، وأحسّتْ كأنّه لِســـانُ أفعى ســـامّة تحاول أن تلدغها في جبهتها المُنقبِضـــة. بقيَتْ مُغمضـــة العينين، ثُمّ أمرها بصـــوته المشـروخ، أن تمدّ يدها اليمنى، ووضـع شـيئاً بارد الملمس في معصمها، ثُمّ قال لها:

_ افتحي عينيكِ.

كانت إسوارةً ذهبية عيارَ 21 قيراطاً. فقالت له:

_ إنّها إسوارةٌ جميلة.

_ اشتريتها من أجلكِ.

كانت في شكٍّ وريبة من تصرّفه هذا، هل يا ترى عاد إلى رشده وأدرك سوء تصرّفه فأراد أن يفتح صفحة بيضاء جديدة؟ أو هذه الإســوارة طُعْم لمطالب دنيئة أخرى؟ فســألته بتردّد وقلق:

_ هذه من أجلي أنا؟!

_ نعم من أجلكِ.

_ أمُتأكّدٌ أنها هديتي؟!

_ كل التأكيد يا حبيبتي (حياة).

قالت له بجفاء:

_ شكراً لك.

احتضنها بين ذراعيه القويّتين كفكّي الكماشة، وهمس في أُذنها:

_ إنّني أحبّكِ أكثر من روحي، أعشقكِ وأذوبُ فيكِ يا مجنونتي، هذه الإسوارة اشتريتها من أجلك أنتِ يا(حياة)، فأنتِ تعرفِين جيّداً أنه لا يوجد أخريات في حياتي غيركِ يا حوريتي الصغيرة، أنتِ في نظري أثمنُ من الماس واللؤلؤ والياقوت والمرجان، ولو خيّروني بينكِ وبين مُلك الأرض والسماء، لاخترتكِ بلا شكّ أنتِ يا عصفورتي الرقيقة.

_ الرقيقة؟!! ما أمهرك في المواربة والتورية!! لفظك يوحي بالنعومة واللطف، وأنت تريد به الذلّ والعبودية والانقياد لرغباتك وشهواتك.

_ لا يا حلوتي، فأنت حقّاً قرينة الطيور في طيبتك ورقّتك وبراءتك.

كلمات رائعة الجمال كانت تتدحرجُ من فمه وتوحي بأنه نادم وتائب، ولكنّ نظراته الشـــهوانية إلى مؤخّرتها، وغمزاته الخبيثة لها أخبرتاها بما تخبّئه نفســـه الراغبة أبداً في الرذيلة، فقالت (حياة) في نفسها: لا شكّ في أن هديته تلك، وهذا الكلام الطيب، والغزل المعسول، ما كان وراءه إلا تلك الرغبة المحمومة في الفعل المخالف للطبيعة. فحاولَتِ التملّص منه، والإفلات من بين براثنه، وتعذّرت بأنه عليها الذهاب فوراً إلى المطبخ، حيث الطعام كان على الموقد، وإن لم تسرع فسيحترق. لكنّ هذه الحيلة لم تنطلِ عليه، وتمكَّن بالفعل من منعها من الذهاب إلى المطبخ، فأمسك الشاذُّ المريضُ بيديها بلطف، ثم ضغط عليهما بقوّة، مثل سجينٍ قُبض عليه توّاً، معتقداً أن إسوارته الذهبية ستكون بمنزلة القيود في معصمي الأسير، وستثنيها عن رفضها، وتُضعفها، فالنساء يضعفن أمام الذهب، وبريقه يسحر ألبابهنّ، ويجعلهنّ مطواعات ليّنات، وسألها بكلّ رقّة ونعومة:

ـ (حياة) ماذا قرّرتِ؟

_ بشأن ماذا؟

_ الممارسة الخلفية.

أجابت بصرامة وصوتٍ عالٍ أيقظه من سكرته:

_ هيهات أن تنال مبتغاك منّي.

لم تكد تنهِي حرف الياء بعد، حتى شعرتْ بألم الصفعة القوية على وجهها الناعم، كان ألمها أقســـى من ألم الولادة العسيرة، ومن شدة الضربة الموجعة وقعتْ على الأريكة ذات المخمل البنيّ، وشــعرت بخيط دافئ رفيع يســيل من شــفتها المشـــقوقة، ونزلتْ إلى أســـفل ذقنها المرتعش من الخوف، وعاد وتوعّدها وهدّدها قائلاً:

_ سنرى لاحقاً يا عاهرة.

مرّ يومان ولم يفاتحها (الدبوس) بالأمر، وكان يعود من العمل عابســـاً، وفي اليوم الثالث عاد من العمل باشّ الوجه، وقد بيّتَ في نفســـه أن يلاطفها، ويغير طريقة القوّة والعنف كليّاً معها، فسلّم عليها وسألها عن صحّتها. ابتسمتْ في وجهه، وكانت في داخلها خائفة ترتعد، وتحاول أن تخمّن

ما ينوي فعله بها هذه المرة. قادها بهدوء ولطف نحو الأريكة البنّية موقع المعركة الأولى، ثُم أجلســـها إلى جانبه، وفتح علبة الدخان، ساحباً منها سيكارة وأشعلها، ونفث بدخانه في هواء الغرفة المغلقة، وكان الدخان يتلوّى بحلقات في ســماء غُرفة المعيشــة، وطلب إليها أن تســمع قصّــته عندما كان صغيراً.

فأبلغها أنه حينما كان بعمر ستِّ سنواتٍ تقريباً، كان يرافق مجموعة من الأولاد، بينهم الأشــقياء، وبينهم السُّــذّج الأغبياء، وفي أغلب الأيّام كانوا يجتمعون في خربة أحد البيوت المتطرّفة في أقصـــى القرية، وكانوا يقضـــون أكثر أوقاتهم في اللعب بين أنقاض تلك الخربة البعيدة عن عيون أهل القرية المارّين، وذات يوم كان بينهم طفلٌ شيطان، اقترح عليهم لعبة جسدية خبيثة، فقام بخلع بنطال طفلٍ صغير من بين أفراد المجموعة التي تضـــمّهم، ثُم فعل به فعلَ قوم لوط الشـــاذّ المخالف للطبيعة، وعلى مرآى ومســـمع من أولاد المجموعة كلّها، وكان هذا الشيطان الشقيُّ يضحك بصوت

عالٍ، وما كانوا يدركون أن هذا العمل هو فعلٌ منحرف وشاذّ، وكان أكثرهم يتضـــاحكون ولا يَعُون ما يحصـــل أمامَهم من مهزلة مُخلّة بالآداب والسـلوك، وخلال لحظات أصـدر الطفل الشـــيطان صـــفيراً عالياً في الأجواء، فقامت المجموعة كلّها بمحاكاته، وانتشـــر صـــوت الصـــفير الجماعي في الخلاء الواســـع، وبعدها بثوانٍ كان راعي القرية واقفاً على التلّة المقابلة للخربة التي كانوا فيها، فســـمع أصـــوات صـــفيرهم الجماعيّ، وصرخ فيهم بأعلى صوته، وأخذ يلوح بعصاه في الهواء مهدّداً زاجراً، فساد هلعٌ وفوضى بينهم، ثُم فرّ كلّ واحد منهم في جهة مختلفة من الجهات الأربع.

وتابع (ســـميح) بأنه في ذلك اليوم حينما رقد يريد النوم، رأى في منامه حُلماً يمارس فيه ذلك الفعل الشاذّ نفسه مع ذاك الشيطان الخبيث.

أدركَ (كليمٌ) صـــاحب صـــالة الســـعادة أنّ زوجها (سميحاً) هو أحد مرضى الطبيب اليهودي (سيغموند فرويد) رائد المنهج النفســـي الذي زعم أنّ الكبت النفســـي يؤدي إلى

دوافع عدوانية؛ إذ يستبعدُ الإنسانُ الذكرياتِ المؤلمة التي حدثت في الماضي وسبَّبتْ له صدمةً نفسية، فينقل هذه الذكريات إلى دائرة اللاوعي، ويُسبّب له هذا الكبتُ القلقَ والعصبيةَ في حال عودة هذه الذكريات إلى العقل الواعي، وهذا حال (سميح) الذي كَبَتَ تلك القصة في عقله الباطن، وبعد مرور أكثر من عشرين عاماً، حينما راح يشاهد الأفلام الخلاعية عادت هذه الذكريات الشيطانية إلى وعيه وأراد أن يتخلّص من عقدته بتطبيق أحلام الطفولة في الواقع، فطلب إلى زوجته أن يأتيها من الخلف، فقد تذكَّر ذلك الفعل الصبياني القديم الذي شاهده بأمّ عينيه وهو صغير، وعندما حُرم من ممارسته الفعل اللوطي ذلك الوقت، أتته تلك الذكريات الآن على هيئة أفكار شاذّة، وراحت تلحّ عليه بشدة، أن يكرّر مع زوجته ذاك الفعل المخالف، وبنفس طريقة ذلك الولد الشيطان، عندما كانوا صغاراً يلعبون في الخربة القديمة معاً.

لاحظت (حياة) شرود (كليم) فسألته:

_ هل أنتَ معي؟

هزّ (كليم) رأســـه هزّات متوالية ســـريعة ليزيح تلك الأفكار والاستنتاجات الخطيرة من مخيّلته، وقال لها:

_ نعم نعم أنا معك، تابعي.

فاسـتأنفت (حياة) رواية قصّـتها، وقالت له إن زوجها سألها بعد أن روى لها تلك القصة:

_ هل اقتنعتِ الآن بصدق كلامي؟

فأجابته (حياة):

_ هُراءٌ بِهُراء.

_ قولي إنكِ لم تقتنعي.

_ إطلاقاً.

أدركَ زوجها أنه وصـل معها إلى دربٍ مسـدودة؛ إذ لم يُجدِ معها الضرب المُبرّح نفعاً، ولا استطاعت القسوة المفرطة إخضـاعها لِمشيئته، ولم يحملها اللين واللطف على التعاطف معه، ولم تُفِدْه المراوغة وتقديم الهدايا شـــيئاً، فزوجه بقيت صـــامدةً ولم تُبدِ أية رغبة في التنازل أمام فيضـــان رغبته

الشاذّة، وسيل تهديداته المتواصلة، فلم تنفع معها القوّة ولم ينفع معها اللين، ووقع أبغضُ الحلال عند الله بينهما أخيراً، وهو الطلاق.

*** *** ***

21آذار/مارس الساعة التاسعة والنصف صباحاً

أنتِ مطرودة إلى الأبد

المشكلة ليست في الطلاق دائماً، فإذا وصلت العلاقة الزوجيّة إلى طريقٍ مسدودة، فالأفضل هو الفِراق، ولكنَّ المشكلة الأساسية تكمن في حال وجود الأطفال بين الطرفين، وبخاصة إذا كانت الأمّ متعلّقةً بأبنائها، وكان الأبناء متعلّقين بأمّهم كحال بطلة قصتنا (حياة) وأطفالها؛ إذ يكون فِراقها وبُعدُها عن أولادها كارثة مُدمّرة لها ولهم.

جمعت (حياة) أمتعتها في حقيبة صغيرة، ووقفت خلف باب الدار ترمق أولادها بنظرة أخيرة تريد أن تخزّن آخر صورة لهم في مخيّلتها، فلا تدري ما سيحّل بها وبهم، ولا تعلم إن كانت ستلقاهم ثانية أو لا، فسارع أولادها الثلاثة إليها وتمسّكوا بأهداب ثوبها الطويل، وشرعوا يبكون بدموع غزيرة، وكانت تشاطرهم البكاء، وتنصبّ دموعها عليهم كشلال هادر بلا توقُّف، وقد رفع أنينهم وكلماتهم الراجية لها

بالبقاء من وتيرة النيران المتوهّجة في قلبها الموجوع، لقد انفصلت عنهم رُغماً عنها، فالزوج يريد أن يحرق قلبها وأن يؤثر فيها من نقطة ضعفها وهي حُبُّها الشديد لهم، وأخوها الكبير الذي ستنزل في داره لا شكّ في أنّه يمانع إيواء أطفالها. فقفزت بخيالها زمانياً وراحت تفكّر ما سيحلّ بها بعد انقطاعها عنهم، فيتهيَّأ لها أنّها تتركُ سرير النوم خالياً، وتخرُج في الليل، تطوف الشوارع الحالكة والمُقفرة من الناس، باكية حزينة والناس نائمون يحلمون أحلاماً جميلة، تتخبّطُ بجنون هِستيريّ، في الظلام الدامس، وأمام بيوت الجيران ترى سيارةً واقفة، فتتوسّل إلى سائقها ليوصلها إلى مدينة القامشلي، حيثُ يقيم أولادها، فيرفض، وتحاول مع غيره مجدداً وتلقى الرفض، وحين تيأس وينالها التعب المُجهد تتوجَّه مع بزوغ الفجر إلى البيت، فيشعر أخوها بعودتها، ويقومُ بشتمها ويعنفها، ويضربها ضرباً مُبرحاً... وفي غمرة هواجسها هذه تسمع صوتاً قويّاً يوقظها من أحلامها، إنه صوت طليقها الهمجي الشرس المُستبد (سميح) الذي فتح

الباب، وبكل حقده وقوته دفعها خارج البيت، فقطع حبل الودّ والحبّ والحنان بين الأولاد وأُمهم المسكينة.

من هول الصـــدمة المُزلزِلة، وقفت (حياة) أمام البيت عاجزة تماماً لا تعرف ما تتصرف، وشدّت كلتا قبضتي يديها في حركة مُتشـــنّجة، وكزّت على أســـنانها في صـــرير قوي، وتهيّأت لتدقّ على باب السـجن الذي يُحبَس من ورائه فلذات كبدها، ثم ما لبثت أن ألغت فكرة الهجوم القائمة في رأســـها، وتخليص هؤلاء الصـــغار من ســـجن مُطلّقها، لأنها عرفت غريزيّاً أن الســـجناء بِمُجرّد أن أصـــبحوا وراء القُضـــبان، يفقدون الأمل بداية في الحرية، ويبيتون ليلتهم هناك، ويأكلون هناك، ولكن يبقى لديهم الأمل في الخروج مع مرور الأيام، هذا ما أعطاها جرعة خفيفة من الصـــبر والســـلوان حينها، ثم التفتت إلى ناحية الشـــارع، وحاولت جاهدة بدء التحرُّك، ولكنّ ثِقَل قدميها كان يعيقها عن المشـــي نحو الأمام، فتحاملت على نفســـها وتقدّمت نحو بيت جارتها (رحيمة) المتسـوّلة مع زوجها الضـرير(رياض)؛ إذ كانت كلَّ

يوم تمسِكُ بيد زوجها، ويطوفان في الأحياء لطلب المساعدة والصـــدقات من الناس. دقّت (حياة)على بابهما عدّة مراتٍ، ولم يُفتح الباب في وجهها الحزين، أرادت قبل مُضـــيّها أن تودّع جارتها العطوف وتوصيها بأولادها، ثم تشدّ حبل الرحيل الممتدّ من القامشـلي مدينة همّها وغمّها إلى مسـتقرّها ببيت الأخ الأكبر في مـدينـة المـالكيـة، وكم بـدا الطريق طويلاً والمسافة شاسعة. قبل الطلاق، عندما كانت تذهب إلى أهلها مُصـطحبةً معها أطفالها الثلاثة، ما كانت تحسّ بالمسـافات، فقط تفكر طوال الوقت لهفةً واشـــتياقاً بلقاء الأهل والأحبّة البعيدين عنها، والآن كيف تصبح المسافات قصيرة كالسابق وبدون الأولاد، وآلاف الأســـئلة تدورُ وتضـــجُّ في رأســـها الصغير، حتماً ستكون الرحلة طويلة الآن لا نهاية لها، حيثُ لا ينتهي الطريق من مدّ حزنها وجزر كآبتها المتواصـــلين، يكون مدّاً، ثُم جزراً، ثُم مدّاً، وبعدها جزراً، وهكذا باســـتمرار، كانت تنظرُ شـــاردة، وهي تراقب من الأســـفل الطريق الغارق بالسواد، كانت تغوصُ حتى الأعماق في السواد إلى الأسفل،

يعني الســـقوط النهائي، يعني الفشـــل الذريع، يعني نهاية وجودها على الأرض، غاصـــت أكثر مع جريان نهر الزمن الذي قطعناه بسكين اسمه اليوم والشهر والسنة، كان سابقاً قبل أن نعي، كان نبعاً أبديّاً لا ينضـــب، يجري بغزارة في الأعماق، ومن تحتها رأت تلّةً مرتفعة، نَمَتْ وانتفخت في رحم أمّها الأرض المقدَّسة سرّ وجود كلّ شيء، وعلى حافَة التلّة توقّفت (حياة) المهمومة عند رأسِ حفرة صغيرة تغمرها ظلمة سوداء، ثُم التفتت يميناً فأبصرت حُفرةً أكبر منها بقليل غارقةً بنفس الظلمة الحالكة، والتفتت شـــمالاً فرأت حفرةً ثالثة أكبر من الثانية بقليل أيضاً كانت مملوءة بالسواد، وتوقّف الزمن في الأعلى، ثم ليس ســـوى لحظات أو ربما ثوانٍ معدودات، وتُقرِّر السقوط الحُرّ نحو الأسفل، نحو السواد نحو الحُفَر الثلاث المليئة بالظلمة والعدم، ولم تمرّ ثوانٍ قليلة قبل السقوط، حتّى ارتدّ صوتٌ من الحفرة الثالثة ذو نغمة رقيقة ناعمة، كلّا أمي، أرجوكِ يا أمي، لا يا أمي، نحن فوق ولسنا

في الأســـفل، فتنبَّهتْ أخيراً، وزفرتْ زفرة طويلـة، وتـابعت طريقها، ووصلت بسلام إلى بيت أخيها الكبير.

وطوال الأيام الثلاثة المتتالية من وصـــولها، لم يهدأ بـالهـا لـدقيقـة واحـدة، ولم يغمض لهـا جفن، ظلّـت تُراودهـا أطياف صـــور أولادها الشـــبحيّة، وتتكرّر باســـتمرار وهم يمسكون بتلابيب ثوبها الطويل، وهم يبكون ويصرخون كي لا تتركهم.

مضــى أســبوع آخر وهي حابســة نفســها في غرفتها وحيدة، ترفض أكثر الأوقات أن تتنـاول الطعام، حُزناً وكمداً على أولادها، وليس أسفاً على زوجها الظالم المنحرف الشاذّ، فلا يمكن أبداً أن تستمرّ (حياة) في تعذيب نفسها، وهي تفكّر في وضـــعها الجديد؛ لأنها تُحبُّ أولادها بشـــغف، والحبّ فيضــان بل إعصــار بل زلزال مُدمر بقوة ســبع درجات تحت مقياس ريختر، لا يمكن أن تصـــدَّه أيّة عوائق مُصـــطنعة، ومهما بدت قوّة الممانعة قويّة من جانب أعدائها الذين لا

يقبلون بوجود الأولاد مع أمّهم، لا بـدّ أن تنتصـــر عليهم بالنهاية، وكم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرة بالإيمان والصبر!

هناك مَن ســيقول: "إنّ كلّ الأمّهات يُحبِبْنَ أطفالهنّ". هذا اعتقادٌ خاطئ – إذا ســـلّمنا به– ففي كثير من حالات الطلاق التي تقع، وبمجرد انتهـاء فترة العـدّة، تتهيّـأ المرأة للزواج بآخر والتخلّي عن أولادها؛ لأن المرأة عامّة لا يمكنها أن تعيش بدون رجل؛ ولأن وجود الزوج في حياتها يعني لها الأمن والسـلام، يعني لها الاطمئنان، يعني الراحة والاستقرار، وبدون هذا الزوج الآخر لا أمن لها ولا عيش بســلام. وهناك نساء كثيرات، كـــ(حياة) وغيرها ما زلن صغيرات في العمر، وبعد طلاقهنّ لا يفكّرنَ إطلاقاً في الزواج، ويبقين متمسّــكات بأطفالهن حتى آخر رمق من العمر، على الرغم من كثير من فرص الزواج التي تأتيهنّ فيما بعد، فيكون جواب هذا النوع من النساء هو الرفض القاطع لفكرة الزواج الجديدة ويتشبّثن بشدّة بأولادهنّ حتّى النهاية.

وإذا أرادت (حيـاة) أن تعيش مَرّةً أخرى فعليهـا ألّا تستسلم، وعليها أن تخرج من طوق العزلة الذي فرضته على نفســـها، ثم عليها أن تبحث في الخارج عمن يُفترض أن يســاعدها للوصــول إلى أولادها البعيدين عنها؛ لأنها فقدت الثقة بالداخل، حيث يعيشُ أخوها الكبير الرافضُ أن تُحضِــرَ أولادَها، وفي هذه الحال ما عليها إلا الخروج والبحث هنا في مدينة المالكية، وهناك في مدينة القامشلي عن نصير لها.

مرّت أيام تعيســـة عانت فيها (حياة) مرارة البعد عن أطفالها وقسوة أخيها وذلّ نظرة المجتمع لها. ووصلها نبأ أنّ زوجها الســابق تزوّج بأخرى مباشــرة بعد أن غادرت (حياة) البيت، فازدادت قلقاً على أولادها، وراحت تخمّن العذاب الذي يعانونه بســـبب ظلم زوجة الأب لهم، فقرّرت أن تنطلق نحو هدفها البعيد والصــعب، نعم هو صــعب، ولكن لا شــيء في هذه الدنيا يبقى صعباً مع الإرادة القوية، فالحياة لا تستجيب للضــعفاء المســتســلمين، والقدر لا يُســعفُ إلا ذوي العزيمة والإصرار كما يقول أبو القاسم الشابي:

إذا الشــعبُ يوماً أرادَ الحياةَ

فلا بُدَّ أنْ يســـتجيبَ القَدَرْ

ولا بــدَّ لليــلِ أنْ ينجلي

ولا بــدَّ للقيــدِ أنْ ينكســـرْ

فهل ســينجلي ظلامُ (حياة)؟ وكيف يمكنها أن تتحرّر من قيود أخيها الذي يمانع إحضـــار أولادها إلى بيته؟ وما السبيل لجعل طليقها يتخلّى عن أولاده ويسمح لها برعايتهم؟

عرفنا (حياة) ذات إرادة قوية وتصــميم شــديد فلم تضعف أمام زوجها الذي طالبها بممارسة شاذّة، وصمّمت على رأيها، وحينما دخلت صــالة الســعادة للأواني المنزلية، ظلّت تلحّ حتى اســـتحوذت على تلك الطنجرة الحمراء، فمن أين تعلّمت هذا الإصرار؟

تعلّمتها من مدرســة الحياة، فالحياة خير معلّم للمرء، واللبيب هو من يســـتخلص العِبَر والحِكَم والخبرة من تجاربه وتجارب الآخرين، فالقســوة والعنف قد يولّدان في نفس المرء العنف أيضاً ويعلّمانه الشدّة بل العِناد، والإنسان حينما يفقد

أغلى ما يملك وأعزّ مَن يحبّ تهون الدنيا في عينيه، ولا يبقى أمامه شيء عزيز ليخسره، فيتجاسَر ويشتدّ عوده، وعندها قد يصل لمبتغاه.

خرجت (حياة) في الصباح الباكر تبحثُ عن سيارة أجرة تقلّها إلى مدينة القامشلي، وراحت تبحث بين السائقين عن ذاك الرجل المُسنّ، كي يساعدها في الوصول، فساقه القَدَر إليها من المحاولة الأولى، وهذه بشارة خير أولى، وعلامة على تأييد القدَر لها ودعمها لتحقيق غايتها. ما أن سمع الرجل الطيب صاحب سيارة الأجرة قصتها المأساوية، حتى تعاطف معها، وقبِلَ أن يساعدها للوصول إلى مقصدِها ولم يأخذ منها أجراً.

انطلقت السيارة مسرعة كقلب (حياة) المتلهّف للوصول إلى الحيّ بسرعة، والنابض بالشوق بقوّة لِلِقاء أطفالها، ومع كلّ دقيقة تمرّ كانت تزداد لهفةً ويزداد أملها ويقينها ببلوغ مرامها. وها هي تصل إلى مدينة حزنها الأسود، وحان الوقت للّحظة المرتقبة. شكرت السائق الكريم

الجواد، ودعت له بالصحة والعافية، وبالعمر المديد، ثم توجّهت إلى حارتها، إلى بيت مُطلَّقِها (الدبوس)، كان الباب مُغلقاً، ولم تجرؤ بداية على طرقه، فدارتْ حول البيت سبعَ دورات، كأنها تحجّ وتطوف حول الكعبة المُشرفة، وهي تدعو ربّها ألا يُخيّب رجاءَها، وأن يهيّئ لها ظرفاً ملائماً لرؤية أولادها واحتضانهم واصطحابهم معها. للأسف طوال هذا الوقت لم يُفتَح الباب ولم تحظَ بفرصة رؤيتهم، فاقتربت من الباب المُغلق الذي يُسجَنُ خلفَه أطفالها الثلاثة، وتلمّست مقبض الباب الخارجيّ، عسى أن تلامس أصابعها مكان ملامسة الأصابع الدقيقة التي تركوها على مقبض الباب، وهم يذهبون إلى مدارسهم كل صباح، فيرتاح قلبها الممزق عليهم قليلاً، ثُمّ أدنت رأسها من جدار البيت، مدّت عُنقها طويلاً للأعلى وأخذت شهيقاً قويّاً لتملأ صدرها العطشان برائحة زفرات أنفاس هواء أطفالها العالق ببقايا البيت، لعلّها تكونُ لها جرعة شافية تخفّف بعضاً من وجدها وتبرّد شيئاً من غليلها وتطفئ جمرة من لهيب قلبها المتّقد حبّاً وشوقاً

للقاء فلذات كبدها، أو ربّما يكون مُضاداً حيوياً يسكّن مؤقّتاً آلامها القوية، ويُقلّل من درجة حُزنها التي لا يستوعبها مقياس الحرارة الزئبقي، ولو استعنّا به لمعرفة درجة الشوق في قلبها لانفجر الميزان كقنبلة موقوتة وتشظّى إلى مئات الأجزاء.

لم تيأس (حياة) الأمّ الحنون، بل رفعت يديها عالياً، تطلب الرحمة من السماء المغلقة في وجهها قائلة: "يا أله... يا مَن جمعتَ (موسى) بأمّه بعد طول انتظار، ولممت شمل (يوسف) بأبيه (يعقوب) بعد طول فِراق، ووهبتَ (أيّوباً) البنينَ بعد طول صبر، اجمعني بأبنائي ولا تحرمني رؤيتهم يا أرحم الراحمين". ما أن أتمّت (حياة) دعاءَها حتى جاءها الإلهام الربّانيّ بأن تقصدَ بيتَ جارتها (رحيمة) التي تكنّ لها كلّ المحبّة والودّ، فتوجّهت مسرعة نحوه، وطرقت باب البيت طرقات متوالية، ففتحت صديقتها الباب، واستقبلتها بابتسامة مُشرقة ووجه بشوش، وقالت لها:

ـ أهلاً بجارتي العزيزة (حياة)، تفضـــلي يا أُختاه، تفضّلي.

كانت (حياة) عاجزة عن الردّ أو السلام، وما كان منها إلا أن عانقت جارتها عناقاً شـــديداً وانفجرتْ بنوبة بُكاء هســتيرية، وبعدها بقليل تماســكت (حياة) وســكنت، وقالت لجارتها (رحيمة) الحنونة:

ـ اعذريني يا أختاه إذْ لم أردّ عليكِ، ففرحةُ اللقاء وألمُ الفِراق عقَدَا لساني.

ـ لا تهتمي بذلك، أنتِ ضيفة غالية على قلوبنا.

ـ أعرِفُ ذلك حقّ المعرفة أيتها الجارة الطيّبة.

جلســتْ والحزنُ بادٍ في عينيها وتقاســيم وجهها، والدموع تفيض من عينيها، وبلهفة وبلا مقدّمات ســألت جارتها عن حال أبنائها قبل أن تسألها عن حالها مع زوجها الضـــرير. فلم تجبها (رحيمة) بداية، وادّعت أنها كانت قد وضـــعت الركوة على النار لتصـــنع القهوة قبل طَرْق الباب، وتوجّهت مســـرعة نحو المطبخ. فأدركت (حياة) أنّ جارتها

تتهرّب من الإجابة، وخمّنت أن أولادها ليســـوا على ما يرام، ولا ســـيّما في ظلّ وجود أب لا يبالي إلا بشـــهواته وملذاته، وزوجة أب ربّما على شاكلته، وليست معنية برعاية أبناء لم تنجبهم ولم تعرف لذّة أمومتهم، وما هي إلا دقائق قليلة حتى عادت الجارة من المطبخ تحمل صفيحة فيها فنجانا قهوة مع بسكويت مُغطّس بالشوكولا. وضعت (رحيمة) الصفيحة على طاولة صـــغيرة أمام (حياة)، وغابت من جديد من دون أن تقول شـــيئاً. أخذت(حياة) تتأمل فنجان القهوة الســـاخن بســـخونة قلبها، والمرّ كمرارة حياتها التي تعيشـــها، جاءت الجارة من جديد وبيدها إبريق الماء، وقالت لضيفتها:

_ لا تغتمّي كثيراً.

_ وكيف لا أغتم؟

_ هل رأيتِ الأولاد؟

_ قبل أن آتي إلى هنا، مررتُ على البيت، وانتظرت طويلاً خارجاً علّني أحظى بلقائهم، فلم أقابلهم، ولم أجرؤ

على طرق باب البيت، ولجأت إليك لتســـاعديني، وتشـــيري عليّ بما أفعل.

_ هل تُريدين أن تحصلي على أولادكِ؟

_ أجل أجل، بربك أسعفيني وأرشديني إلى حلّ؟

_ لا تقلقي، الأمر سهل وبسيط.

انفرجت أســـارير (حياة) وبشّـــتْ وجهها، ونظرت إلى جارتها بدهشـــة وشـــوق لســـماع ما لديها، فلا شـــكّ في أنّ (رحيمة) –بســـبب قربها من بيت (الدبوس)– تعرف بعض الأخبار عنه، وعن زوجته الجديدة، وعن أســـلوب معاملتها لأولاد (حياة).

تجاهلنا الحديثَ عن (ســـميح الدبوس) طوال هذا الوقت، فما كان حاله؟ تزوّج (ســـميح) بعد طلاقه من (حياة) مُباشـــرةً، فمن الســـهل في مجتمعنا أن يجد الرجل بأقصـــى سرعة بديلاً عن زوجته، فهو الطالب والساعي، وهو صاحب القرار، ولكن المرأة من الصـعب أن تجد الرجل المناسـب لها في المرة الثانية، لأنها عموماً هي المطلوبة، وأبناء مجتمعنا

يأنفون من الزواج بمطلّقة أو أرملة، ويرغبون في البِكر التي لم تخض تجارب مع أحد. كان جُلّ تفكير (سميح) مُنصبّاً على الجنس وتحصيل لذّته، بعكس مُطلقته (حياة) التي كانت غايةُ تفكيرها كيفيةَ الحصول على حضانة أولادها. ومن الطبيعي فيمن كانت غايته كغاية (سميح) ألا يبالي بأولاده، ولا يحفل برعايتهم، ولا يسعى إلى التمسّك بهم، فهو لا يريد أن ينغّص عليه أيُّ أمر حياتَه.

أخبرت الجارة (رحيمة) جارتها القديمة أن طليقها منذُ أن دخلت المرأة الجديدة حياته، لم يهتمّ بأطفاله، وظلّ طوال الوقت منشغلاً براحته النفسية وملذاته الشخصية، واستغلّت الزوجة الجديدة نقطة ضعفه، فهي قادرة على إرضائه مهما أساءت لأولاده، لذا كانت تعامل الصِّغار بقسوة وجفاء، من دون أن تكترث بأي لوم أو تأنيب من أحد.

والتفتت (رحيمة) وقالت للأم المعذبة (حياة):

_ مشـــكلتك بســـيطة وحلّها ليس معقّداً، ومســـألة استرداد الأولاد ليست صعبة كما تتصوّرين، ولكن سأسألك بداية سؤالاً: هل يقبل أخوك أن يعيش أولادك معه في بيته؟

أجابت (حياة) بلوعة وخيبة أمل:

_ لا أدري، وغالباً سيرفض.

_ إذاً وضعك يستلزم توافر أمرين أساسيين: الأول هو تأمين عمل تحصـــلين منه على قُوْتك وعيالك، فلا أعتقد أن طليقك مســـتعدّ للإنفاق عليك وعلى أبنائك، وكذاك أخوك لن يتحمّل وجودهم في بيته والإنفاق عليهم، لذا أنت أمام طريق واحدة وهي أن تعتمدي على نفسك في سبيل تأمين عيشك. والثاني هو تأمين مأوى لك ولصغارك.

فسألتها (حياة):

_ وماذا أعمل وأنا امرأة ضـعيفة لا أملك رأس مال ولا خبرة لديّ في أيّ عمل؟

فأجابتها (رحيمة):

_ إنها مهنة لا تتطلّب رأس مال ولا خبرة.

ـ وما هي بحقّ السماء؟ أنجديني.

ـ التسوّل. أأنتِ مُستعدة لقبول مهنة التسوُّل؟

هزّت رأسها، وبلا تردّد قالت:

ـ موافقة.

ـ إذاً على بركة الله.

ـ على بركة الله.

لم يكن لدى (حياة) خيار آخر، فهي مستعدّة أن تفعل أيّ شيء مهما كان ذليلاً في سبيل الحصول على أولادها، فلم تفكّر بالمخاطر الجسيمة لمهنة التسوّل، ولا بالسمعة السيّئة للمتسوّلين، ولا بالمصير الذي ينتظرها وأبناءها، فالتفكير مشلول عاجز موجّه نحو هدف يتيم وحيد هو الأطفال.

قبِلت (حياة) القيام بمهنة التسوّل برحابة صدر، وفرِحت فرحاً عارماً بأن ستضمّ مجدداً أبناءَها إلى صدرها، ولكن كيف؟ فسألت (حياة) زوجة الضرير:

_ هذا حلّ للأمر الأول مشكِلة العمل. فما الحلّ للأمر الثاني إنْ رفض أخي استضافة أولادي في بيته؟ أين سأقيم؟

أجابتها جارتها الرحيمة (رحيمة):

_ سأقرضك مبلغاً تستأجرين به بيتاً متواضعاً، وتردّينه لي على دفعات بعد بدئك بالعمل.

بدت الأمور ســـهلة منطقية، ولكن ما أهون الكلام! وما أيسر الأحلام! وماذا نقول للمتنبي حين قال:

مـا كلُّ مـا يتمنّاه المـرء يدركه

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ

أليس من المحتمل أن تكون هناك عراقيل؟ أليس من الوارد أن يرفض (الدبوس) تسليم الأولاد؟ هل يمانع الأخ عمل أخته في التسوّل؟ هل يجبرها على ردّ الأولاد لأبيهم ويزوّجها بغيره رغماً عنها؟ احتمالات كثيرة وهواجس مخيفة وأفكار سوداوية عديدة ظلّت تدور في رأس (حياة) المهمومة الحزينة، غير مُصـدّقة ما تسـمعُ أُذناها من أحلام ورديّة. وكانت (رحيمة) تفحصها وتحسّ بقلقها، فقالت لها:

_ افردي يا بتّ.

_ لا أستطيع، فالخوف من المجهول يربكني؟

_ تفاءلي خيراً، وقريباً ستحصلين على أولادكِ.

_ أنا خائفة.

_ مِمَّ تخافين؟

_ ألّا يوافق تاجر البذور أن يتنازل عن تسليم الأطفال لي.

_ بـالله عليـك كيف تتوقّعين من رجـل لا يبـالي إلا بشـــهوته أن يتمسّـــك بأولاده الذين قد يفســـدون عليه لهوه ومتعته؟!

_ قد يفعلها نكايةً بي.

_ تتوهّمين، هذا كان قبل زواجه بأخرى.

بحكم علاقـة الجيرة القويـة، مـا بين بيـت (ريـاض) الشحاذ وبيت تاجر البذور، عرفت (رحيمة) أن جارهم (سميح الدبوس) يريد أن يتخلّص من أولاده في أقرب فرصة، ويتمنّى

أن تستلمهم أمّهم، ليتاح له المرح بلذة المحرمات الجنسية مع زوجته الجديدة.

وكي تنفّس (رحيمة) عن صديقتها (حياة) همّها، وتزيل عنها غمامة القلق، ارتدت ثياب الخروج، واستأذنت ضيفتها بالمغادرة لوقت قصير، وتركتها نهباً لأفكارها السوداوية من جديد تنهشها وتفتتها بلا رحمة، وفعلاً لم تمرّ إلا ساعةٌ من الوقت، وعادت (رحيمة) تجرّ معها ثلاثة أطفال بعمر الورود، وقالت لصديقتها:

_ خُذيهم، هم مُلك لك.

لم تصدّق (حياة) ما تراه عيناها، وبلا شعورها اندفعت نحوهم، واندفعوا نحوها، واحتضنتهم بين ذراعيها، وأخذت تقبّلهم بِلهفة واشتياق ومحبّة. وبادلوها القُبَل، والصياح:

_ أمّي... أمي... لا تتركينا يا أمي.

فخاطبتهم بحرقة والدموع تتقاطر من عينيها:

_ لا تخـافوا يـا أحبـابي، لن أترككم بعـد اليوم أبـدَ حياتي، فقد بذلتُ ما في وسعي لاسترادادكم، ولن أسمح لأحد أن يبعدكم عنّي ثانية.

شـــكرتِ الأمُّ الحنونُ صـــديقتَها (رحيمة) وعانقتها بمحبّة، وأخذت أولادها وانطلقت قبل أن يغيّر (الدبوس) رأيه، واتّجهت نحو المـالكيـة حيث بيتُ أخيهـا، وكـانـت تتخبّطها جملة من الوســاوس والمخاوف، فهي لا تســتطيع أن تخمّن ردّة فعل أخيها حينما سيرى الأولاد.

وفعلاً كان حدســها صــائباً، فبدلاً من الترحاب الحارّ واســـتقبال المنتصـــرين بالظفر ببغيتهم، قوبلت (حياة) مع أولادها بالسخط والعنف؛ إذ تقدّم منها أخوها الكبير، وصفعها بكلّ قوّته على خدّها الأيمن، وأعقبه بلكمات ورفسات متوالية شديدة على كامل جسدها وعلى مرأى من أولادها الذين كانوا يبكون ويرتعشـــون من الخوف، وهم متمسّـــكون بذيل ثوبها الطويل، مُلتحمين معها في كتلـة عذابٍ واحدة، وراح يقذف من فمه النتن أقسى العبارات، ويتفوّه بأقذر الكلمات، ويهدّدها

بأنه لو يعرف أنه سـيُفلت من عقاب القانون، لسـفح دمها وهو مرتاح الضمير، ثُم فَتح باب البيت وقال لها بملء فيه:

_ أنت مطرودة إلى الأبد.

ليست هذه المرة الأولى التي تُطرد فيها المرأة من جنّة أهلهـا، فقـد طُرِدت من قبـل أمّهـا حواء من جنـة أهلهـا السماوية. لم يبقَ أمامها سوى الرجوع إلى مدينة القامشلي، ومتابعة ما رسـمه لها القدر، وعليها منذُ الآن أن تسـبح في بحر مُتلاطم من أمواج الشقاء والذلّ والهوان.

عادت إلى صـــديقتها (رحيمة) مع أطفالها خائبة الرجاء من أخيها، فاستقبلتها جارتها القديمة خير استقبال، وأضافتها عندها ريثما استأجرت مسكناً بسيطاً لها ولأبنائها، ودرّبتها على فنون التسوّل، وكيفية الاستجداء، وحذّرتها من أمر خطير وهو ألّا تنجرّ إلى مهنة الجنس والدعارة، وشدّدت عليها –بحكم تجربتها الطويلة في التسول– بألّا تنحرف عن طريقها المُتّبع طريق الصدقة والإحسان، ونبّهتها عليها أنها إذا انحرفت فستخسر سمعتها وشرفها بين الناس، وكذلك

ستخسر مستقبل أولادها، فالعيش في مجتمعٍ شرقي محكوم ومُقيّد بالعادات والتقاليد لن يرحمهم مُطلقاً.

*** *** ***

21آذار/مارس الساعة التاسعة وخمس وأربعون دقيقة صباحاً

الرسّام المغتصب

انغمست لقمة عيش (حياة) من التسول والشِّحاذة بالرذيلة والتحرّشات الجنسية من مُختلف الأعمار، ويمكن القول إن أغلب المحلّات التجارية وبيوت الأغنياء التي كانت تلجأ إليها (حياة) طلباً للمساعدة، كانت تتعرض فيها للمضايقات والكلمات الفاحشة التي تمسُّ صميم كرامتها، ولكن الحادثة الأبشع التي تعرّضتْ لها، ولم تَنْسَها طوال حياتها كانت حادثة الذئب الذكري الذي اتخذ القبو مرسماً له تحت الأرض.

ففي ذات يوم شتائي وبينما كانت (حياة) تلتقط رزقها من هنا وهناك كالعصفور، بدأ يهطل المطر بغزارة، فوجدت أمامها باب قبوٍ عميق درجه طويل ملتفّ نحو الأسفل، فقررت النزول إلى هذا القبو لعلّها تتفادى فيه الأمطار الغزيرة أولاً، وتطلب رزقها من أصحابه ثانياً. نزلت (حياة)

ذات الجمال الباهر والقوام الرشـــيق إلى ذلك المكان المخيف الموحش مُكرهة قلقة، كعصـــفور يفرُّ هرباً من الغيث ويطلب الملجأ، ومع كل درجة تنزلها كان قلبها يخفق بشـــدة وتزداد خوفاً، وحين وصـلت إلى نهاية الدرج وجدت رسّـاماً جالسـاً على كرسيّه مستغرقاً في لوحته التي يرسمها، وبجانبه طاولة عتيقـة بنّيـة اللون، عليهـا قِنّينـة من النبيـذ، فتردّدت في المتابعة، وقرّرت التراجع قبل أن يراها، ولكنّه فجأة رفع رأسه، ونظر إليها بإمعان، وابتسم في وجهها، وقال لها:

_ تفضّلي يا أختاه، ماذا تريدين؟

ردّت قائلة:

_ صدقةً لله.

_ انظري إلى نفسكِ، إنكِ مبلّلة بالكامل.

_ أعرف ذلك.

_ ستمرضين.

_ لا يهمّ.

_ هل تُمطر كثيراً في الخارج؟

ـ نعم.

قال الرسام الذئب في نفسه: كم يصعب علينا نَصْبُ الأفخاخ والشراك لصيد الفرائس، ولكن ها هي ذي الطريدة تأتي بنفسها، من دون أن نبذل أيّ جُهد لِمُطاردتها وإيقاعها في شباكنا. فأفرغ نصف الكأس المملوء بالنبيذ الأحمر في جوفه الظمآن برشفة واحدة، ما أعطاه حافزاً قوياً، فنهض عن كرسيّه، وأخذ يرمق فريسته بنظرات شهوانية، وفي الوقت ذاته كان ينظر بطرف عينه نحو درج القبو المُطلّ بابُه على الشارع الرئيسي، وقال لها:

ـ أبشري يا أختاه، وانتظري لحظة ريثما أحضر لك بعض المال.

تقدّم الرسّامُ مسرعاً نحو الدَّرج، وهي متوجّسة لا تدري ما يخبّئ لها القدر، ولا تعي ما سيفعل ومن أين سيحضر لها المال. وارتقى هذا المخادع الماكر الدرجات بسرعة نحو باب القبو، وأغلق الباب وعاد إلى الأسفل وقد بدت على وجهه

علامات النصـــر والمكر والزهو، وكانت (حياة) المتســـولة لا تزالُ ترتجِفُ من الخوف والبلل.

كان القبو واســـعاً، وتتدلّى من ســـقفه عدة لمبات ليزرية، وتنتشـر في أرجائه عواميد مسـتطيلة الشـكل، وعلى جهـة اليمين عند بدايـة الدرج كانـت هنـاك غرفـة صـــغيرة، نصـفها السـفلي من الباطون، ونصـفها العلوي من الألمنيوم والزجاج، أمّا أرضـية القبو فمن البلاط المصـنوع من البحص غير المجلي. ومما زاد (حياة) ريبـة بأمره أنها حينما نظرت إلى جدران القبو وجدت عليها كثيراً من اللوحات لنســـاء ناضجات في العمر عاريات وشبه عاريات، وقليل منها لنساء بكامل ملابســهنّ وهنّ مصــلوبات. واللافت للانتباه أنّ أغلب وجوه النســاء في الرســومات غريبة وليســت للمشــاهير من الفنانـات، وفضـــلاً عن أنّها وجوه كئيبـة شـــاحبة، كانت صــاحباتها ذوات بطون ضــامرة نحيلة. عندها تأكدت (حياة) أن حدسها القويَّ لم يخُنْها من اللحظة الأولى التي نزلت فيها درج القبو، فحارت في أمرها ما تصـنع، وما زالت غير واعية

لما يحيط بها، ولا تستطيع معرفة ما يريد أن يفعل هذا الذئب بها.

في الخارج كان يجري نهرٌ من مياه المطر في الشوارع، ما قطع حركة المارّة والمركبات، وقد أدركت الأسيرة (حياة) أنها مهما صرخت واستغاثت فلن تجد من ينقذها منه، بسبب الأحوال الجوية الماطرة الشديدة بالخارج، وبسبب عمق القبو. فما عليها إلا التروّي وانتظار الفرصة السانحة للهرب.

اقترب الرسام من (حياة)، وحاول أن يلمس وجهها بأصابعه القذرة، فدبّ الارتعاش في أوصالها سريعاً، واضطرب قلبها، وازدادت سرعة ضرباته، وتراجعت نحو الخلف كغزالة مذعورة تفرُّ من سَبعٍ يلاحقها، فدفعها إلى الكرسي، وأجلسها عليه، ووقف أمامها، وقال لها:

_ اهدئي ولا تخافي، ولا تقلقي.

فقالت له بنبرة فيها لين ورجاء:

_ أتوسّل إليكَ أن تعتقني ولا تلمسني.

_ اطمئني، وأعـدك أن تخرجي ســـليمـة إن كنـت مطواعة، ولم ترتكبي أيّ حماقة يا ... بالمناسبة، ما اسمك؟

_ (حياة).

_ أرجو أن تضحك لك الحياة يا (حياة).

_ أرجوكَ أن تعتقني.

_ انظري إلى كل تلك اللوحات من حولكِ.

_ نظرتُ جيداً.

_ رسمتهنّ جميعاً، وأنا أتخيلهنّ.

_ والمعنى؟

_ سأقوم بِرسمكِ واقعياً.

_ لا، لن تفعل ذلك.

_ اهدئي قليلاً.

_ لا، لن أهدأ.

_ أعرفُ جيداً أنكِ متسـولة تطلبين المال، وسـأُعطيكِ مالاً كثيراً، ومن ثَمّ تذهبين بسلام.

_ بحقّ الله أرجوكَ، أنا لست كذلك.

_ اخرسي.

_ أرجوك.

_ كـلّ جنس حوّاء يقلْنَ هـذا، ويتظـاهرْنَ بـالعفّـة والطهارة، ولكنّكنَّ تسـلّمْنَ أنفسـكنّ بسـهولة، في أي لحظة ضعفٍ تمرّ بكنَّ.

أجابت بنبرة تهديد:

_ إذا لم تجعلني أذهب الآن فسأصرخ بأعلى صوتي، وستصبحُ في موقف حرج للغاية.

ضـحِكَ عالياً، مُكشـراً عن أنياب الذئب البشـري، وهو يقول:

_ انظري يا (حياة). أنتِ في سـردابٍ أرضـي، ومهما صرخت فلن يسمعك أحد.

_ لن أحقّق لكَ ما تريد.

_ أنا رسّام ماهر، وقد ساقك القدر إليّ، فلن أستغني عنكِ إلا بعد أن أرسمكِ واقعياً.

كانت الأســـيرة (حياة) على قناعة تامّة أنه لا مجال لأن ينجدها أحد مهما صاحت أو استغاثت، ولكنها أرادت أن تخيفه وتظهر له تماسكها وعدم استسلامها، فقالت له بثبات وصوت عالٍ:

ـ اقتلني قبل أن تنال مني.

دنا منها أكثر ولامس بأطراف أصـــابعه وجهها الناعم وقال لها:

ـ (حياة) اســمعيني، ســأجعلكِ تصــلين إلى النشــوة والأورجازم، وسأعطيكِ أجرَكِ.

أخذتْ نفســـاً عميقاً، ثم أطلقت زفرة قوية وانتصـــبتْ أمامه كالنَّمِرة الجريحة التي لا يمكنها المقاومة طويلاً بسـبب ضَعفها الأنثوي، وهجمت عليه، وحاولت أن تُخرمش بأظافرها الهشّــة وجهه، وتُخططه كمحراث يغرس في أرض بور، ولكن الذئب كان صُـــلباً قوي البنيان، فقبض على كِلتا يديها واحتضنها بين ذراعيه، ثُم حملها على كتفيه، وتوجّه بها إلى أقرب عمود في القبو، ولم تُجْدِها نفعاً مقاومتها ومحاولاتها

بالتملّص من بين يديّه. فأمســـك بحبل كان ملقى جانب العمود، وقيّد به معصـمها بشـدّة، وجعل ظهرها مسـتنداً إلى العمود، ومرّر الطرف الآخر للحبل من خلف العمود، وشدّ به معصمها الآخر. ثم قال لها فرِحاً منتشياً:

ـ لو لم تُقاومي وتعانـدي يـا قطتي الحلوة، لمـا كـان حالكِ هذا الحال.

ـ الرحمة يا ذئب.

أخذت تسيل قطرات من لُعابه على أرضية البلاط غير المجلي، وقال لها:

ـ كم أنا جائع لثمار جسدك الشهية!!

ـ ألا تخشى الله؟

ـ كلّا.

ـ أليس عندك زوجة.. بنات.. أخوات؟!

رد الرسامُ مقهقهاً:

ـ أنا مقطوعٌ من شجرة.

تـذكّرت (حيـاة) في هـذه اللحظـة طليقهـا (الـدبوس) وشـــهوته العارمة، وكيف اســـتجابت لطلبه ومارســـت معه الجنس الفموي خشـــيـة أن يطلّقها ويبعدها عن أولادها، وخافت أن يكرّر هذا الرسام القذر الطلب نفسه أو أن يجبرها على أشياء أخرى تكرهها، وراودها الشعور ذاته بالخوف على أبنـائها إن مـانعت، فربّمـا يقتلها ويتخلّص من جثّتها، فمن سيتكفل بعدها برعاية صغارها الذين ما يزالون فِراخاً صغيرة لا تقوى على الطيران بمفردهـا؟ وأدركـت أنهـا إن دافعـتْ عن عِرضها وشرفها ومانعت فلا شكّ في أنها ستكون ميتة. ومرّة ثـانيـة قرّرت التضـــحيـة كُرمَى لأبنـائهـا، وكـانـت النتيجـة الاستسلام التام للرسام الوحش.

صـــرخ الذئبُ الرســـام المريض بملء شـــدقيه عالياً، وتردّد صدى صوته الجهوري في أرجاء القبو الواسع:

_ أنا الرسامُ المُغتصب.

تقدّم الجلّادُ من الضحية، وشرع بتعريتها وجرّدها من كلّ ثيابها، وكان كلّما نزع عنها قطعة من ثيابها يتراجع إلى

الخلف عدة خطوات ويلتقط بعينيه صـــورةً للوحته الحيّة المصلوبة، ويخزّنها في ذاكرته الفوتوغرافية.

أصبحت (حياة) عارية كحورية بحر سحرية، وتأملها ملياً بنظراته النهمة وشـــدقيه المفتوحين على وســـعهما، ثم أخذ يمسّد جسد الضحية براحة كفّه من الأعلى مروراً حتى الأســـفل، وتحوّل إلى الطاولة البنية التي عليها قِنّينة النبيذ الأحمر، ورشف جرعاتٍ متتاليات، وتقدَّمَ إلى الطريدة العالقة في الشِّـــبَاك، مُنهياً ما تبقى من لوحته الفخمة، بمزج ألوانٍ مائية بيضـــاء مع صـــفراء فتُكمل عمله في اللوحة الواقعية، وأسدل بذلك الستارة أخيراً على لوحته الحيّة، بذرع بذرة حية جديدة تتغلغل داخل إطار اللوحة الواقعية، وذلك عكس كل لوحاته المعلّقة على جُدران الســـرداب المُظلم الكئيب، وبعدها أجهز الذئب البشـري على ما تبقّى من النبيذ، وانصـرف عن ضـــحيّته محتفظاً في ذاكرته بتلك الصـــور الفوتوغرافية الخُلاعية للفتاة الحسناء (حياة) المتسولة.

*** *** ***

21 آذار/ مارس الساعة العاشرة صباحاً

طبيبٌ مُستغِلٌّ

ذلك الاغتصـــاب المؤلم القاســـي الذي تعرّضـــت له (حياة) لا بدّ أن يخلّف في نفسها آثاراً سلبية، هذا إن لم يكن له آثار جســـدية. فبعد أن قضـــى الرســـام وطره منها، وفكّ قيودها، ارتدت ثيابها، وغادرت على الفور المكان، وهي تحمد الله وتشـــكره؛ لأنه أنقذها من بين براثن ذلك الوحش البشـــري المفترس، ولم يقتلها، وفور وصـــولها ســـالمة إلى البيت ورؤيتها للأولاد مُجدّداً، كانت تُقارن بين أمرين: القتل والاغتصـــاب، فكان يهونُ عليها الثاني، فمن كان ســـيعيل صـغارها من بعدها، وهي كلُّ شـيء بالنسـبة إليهم؟ هي الأم والأب والأخ.

توالت الأيام، وبعد مرور أشـهر قليلة أحسّـت بركلات الجنين تضـــرب جدران رحمها، فكّرتْ طويلاً، كيف لها أن تحمل وهي غير متزوّجة، فتذكّرت ذلك اليوم الشـــئيم الذي قضته مع ذلك الرسام المجنون، لم يكن ليخطر في بالها أنها قد تحمل من لقاء عابر، وكيف لامرأة تمشـي في اليوم آلاف الأمتار، تبحثُ عن رزقها منذُ بواكير الصـــباح، ولا تتناول طوال اليوم غير قطعة من البســـكويت والماء، حتى عودتها في المســـاء إلى البيت أن تحمل؟! ويوم عرفت أنها حامل اعتراها القلق ولم تنم ليلاً دقيقـة واحـدة من تنـاوب نوبـات الأرق والخوف المتواصِـلَين، كانتا تهجمانِ عليها وتنهشـانها كوحشٍ جائع، وذلك نتيجـة تلك الأفكار المتضـــاربـة التي تعصِـفُ بها من كل الجهات وتتصـارع في مخيّلتها، فهي إن أبقت الجنين فسـتُطعن في شـرفها وعِرضـها، فكيف لامرأة بلا زوج أن تحمل؟ لا شـــكّ في أنّ الكل ســـيظنّ بها الظنون الســيّئة. وإن ســعت إلى التخلّص من الجنين فســتقع فيما حرّمه الله، فالجنين قد تخلّق، وبإســقاطه كأنها تقتل نفســاً

بريئة. ولكنها تعلم أنّ أهل السماء أرحم من أهل الأرض، وأن عدالة السماء قوانينها ليست صارمة صرامة قوانين البشر، فالله أعلم بحالها، ويعرف سبب فعلها، لذا سيعفو عنها، أمّا البشر فلا يعرفون العفو ولا يلتمسون الأعذار لأحد، ولا سيما لامرأة في وضعها مطلّقة ومتسوّلة، فالكُل يُعاديها، إلا واحدة كانت قريبة منها قرب القلبِ من الصدر، نعم كانت تلك (رحيمة) زوجة (رياض) الضرير، فهي ملجؤها الوحيد الآمن وقت الشدائد، ويا لتناقض الأقدار والأحداث، فقد استعانت بها في المرّة الأولى لتساعدها في ردّ أطفالها، وها هي اليوم تفكّر بها لتساعدها في التخلُّص من جنينها.

كان الليل طويلاً ومرّ ببطء شديد على (حياة)، فقد بدأت خيوط الشمس الذهبية الأولى تلوح في الأفق ولم يغمض لحياة جفن، فعينٌ لها كانت تتأمل مرور عقارب الساعة سريعاً، وعينٌ كانت تَطْمَئِنّ على سلامة الصغار، وفي الصباح انطلقت إلى بيت الجارة حلّالة المشاكل المستعصية على الحلّ، وطرقت باب بيتها طرقات متوالية،

فتحت (رحيمة) الباب وفوجئت بمجيء صـــديقتها لزيارتها باكراً، فخمّنت أن هناك خَطباً، ومع هذا ابتسـمت في وجهها، ودعتها إلى الدخول. جلسـت (حياة) الحامل من رجل غريب، والحاملة لهمّ كبير ولا تدري كيف تبدأ حديثها. فسألتها زوجة الأعمى:

_ ما بك؟ لا تبدين على ما يرام.

_ مُصيبةٌ.

_ ماذا حدث؟

_ أنا حامل.

_ حامل؟!! منذ متى؟

_ منذ أربعة أشهر تقريباً.

_ أربعة أشهر!! ألم تلاحظي من قبل أنك حامل؟

_ أنـتِ تعلمين يـا (رحيمـة) أنّ غير المتزوّجـة أو المطلقة أو الأرملة لا تعتدّ كثيراً بموعد عادتها الشـــهرية، فليس ثمة ما يدعوها للاهتمام بمواعيدها.

_ وكيف؟

_ في سرداب تحت الأرض.

_ بإرادتكِ؟

_ كانت عملية اغتصاب.

_ مَن أبوه؟

_ يُسمي نفسه الرسام المغتصب.

_ وبمَ تفكّرين؟

_ وهل تحتاج من هي بمثل حالي إلى طويل تفكير؟

فهمت الجارة أن (حياة) تنوي إجهاض الجنين غير الشــرعي، وأنها لجأت إليها لتجد لها مخرجاً من هذه الورطة التي وضعها فيها ذلك الرسام المغتصب.

سألتها (حياة):

_ ما العمل يا (رحيمة)؟

_ دعيني أُفكر قليلاً.

_ أرجوك ساعديني في إيجاد حلّ سريع.

_ ماذا تنوين أن تفعلي؟

_ علينا أن نذهب إلى طبيب نسائي.

_ أعرف هذا، ولكن.

_ ولكن ماذا؟

_ لقد تأخرتِ حبيبتي في كشــف الحمل، وأخشــى ألّا نجد طبيباً يقبل أن يجري لك عملية الإجهاض.

خافتْ (حياة) خوفاً شــديداً، وشــهقت شــهقة قويّة، وقالت في نفســها: أمن المعقول أن تُكتَشَــف حقيقة حملها ويُفتضح أمرها، وتصبح علكة تُمضغ على كل لسان؟ وهاهي الجارة (رحيمة) التي ساعدتها سابقاً، تُعقّد الأمرَ عليها بدلاً من أن تهوّنه، أمَا كان لها أن تســهّل الأمر، وتُخفّف عليها قليلاً من همومها وأحزانها المُتراكمة بحجم الجبال العالية؟

قالت الحامل لزوج الضرير:

_ لم أقصد إخفاء الحمل عنكِ، صدّقيني لقد اكتشفته توّاً.

_ لا أقصــد تجريحكِ يا (حياة) أكثر من اللازم، وأنا أصدّقكِ.

_ ماذا نفعل؟

_ اســـتبشـــري خيراً يا أُمّ (فراس)، غداً نذهب إلى الطبيب.

الغد بعيد بالنسبة لها، فكيف تجد الراحة، وهي لا تزالُ ترزح تحت هذا الحمل الثقيل؟ ولو كان شـــرعياً لمّا أحسّـــت بهذا الإحساس المؤلم، ولكانت افتخرت به أمام الناس، ولكنه حملٌ غير شـرعيّ، لذا سـتحسّ بطول الوقت، وسـتعدّه ثانية ثانية، فما أطول سـاعات الانتظار! وما أقسـى اللحظات التي ستمرّ عليها!

لم يأتِ الصـــباح إلا بعد أن اســـتنزف طاقة (حياة)، وأفرغ كل ما اختزنت من صبر. انطلقت (حياة) باكراً نحو بيت جارتها، واصـــطحبتها نحو عيادة طبيب بعيد عن حارتهما، خشـــية أن يعرفهما، وخوفاً من أن يلتقيا في العيادة بامرأة تعرفهما. كانتا أول من يقصـــد العيادة من المراجعات، بل سـبقتا الطبيب ذاته، دفعتا أُجرة المُعاينة والكشـف في غرفة الاســـتقبال، فحجزت الممرضـــة للحامل (حياة) الدور الأول للدخول. وحين حضـر الطبيب، أدخلتِ الممرضـةُ الحاملَ إلى

غُرفة التشـــخيص. تمددت (حياة) على الســـرير، أمّا جارتها (رحيمة) فجلستْ على الكرسي بجانب طاولة الدكتور، فسأل الطبيبُ المُمددةَ أمامه على السرير:

_ ما الاسم؟

_ (حياة).

_ العمر؟

_ خمس وعشرون سنة.

قاس الطبيب النبض والضـــغط، ثُم أجرى فحوصـــات باســـتعمال جهاز الإيكو، بعدها اســـتراح على كرســـيه، وقال مُبتسِماً:

_ حملكِ سليم يا (حياة).

لم تنبس (حياة) الشـــحاذة ببنت شـــفة، فســـرعان ما قالت صديقتها المنقذة (رحيمة) بوجه بشوش:

_ نعرِفُ ذلك جيداً دكتور، ولكن لا تعنينا سلامته.

ابتسم الطبيبُ قائلاً:

_ فهمت. تريدين الإجهاض.

_ بالطبع جئنا من أجل إجهاض الجنين.

_ ألا تعرفين أنه عمل ممنوع، ويعاقبُ عليه القانون؟

_ أعرف ذلك.

_ إذاً لماذا تطلبين أن أُخالف القانون؟

_ هناك حالات إنسانية خاصة تستدعينا أن نخالف القانون أحياناً يا دكتور.

_ ما الخاصُّ عندكما؟

أجابت (حياة) بحلقٍ جاف:

_ دكتور. حملي غير شرعي.

_ غيرُ شرعي!!

_ نعم.

_ كيف؟

_ تعرّضتُ لعملية اغتصاب قهرية.

قاطعت المُرافِقة الحوار بينهما، وتوسّلت إلى الطبيب قائلةً:

_ أرجوك يا دكتور أن تســـاعدنا للخروج من هذه الورطة.

_ لا يمكنني القيام بذلك.

أجهشت (حياة) بالبكاء، ودمعت عيناها بغزارة؛ لأنها شعرت ألّا فائدة تُرجى من هذا الطبيب القاسي القلب الذي لا يُقدّر الأمور حقّ قدرها، فكلّ ســـاعة تمرّ تكبر بطنها ويكاد يفتضــح شــأنها. وفجأة وقف الطبيب الجشــع بين المرأتين المكسورتين وقال لهما:

_ عندي الحلّ.

انفرجت أســـارير (حياة)، واعتقدت أنّ الطبيب رقّ لحالها، وسيتعاون معها، وما إن فتحت فمها لتستفسر عن الحل سبقتها (رحيمة) وسألت:

_ ما الحل يا دكتور؟

_ إذا دفعتما مبلغاً كبيراً من المال أجري عملية الإجهاض.

_ تُريد مبلغاً كبيراً من المال؟

_ أجل، فهذه صـــفقة تجارية يجب أن ينتفع منها الطرفان.

_ وإذا حلفتُ لك إنها لا تملك شيئاً.

_ ليس ذنبي، هذه مشكِلتُها.

_ دكتور هذه المرأة التي أمامك تقتاتُ من التســـول، ومن صدقات الناس الشرفاء الطيبين أمثالك.

_ لستُ طيباً.

_ أنــت تُغلق أبواب الرحمــة في وجــه الفقراء والمُحتاجين.

_ أنا لا أعمل بدون أجر.

_ شكراً جزيلاً دكتور.

وعلى عتبة باب العيادة الخارجي، قالت (حياة) بقلب محروق وغضبٍ شديد لصديقتها الوفية:

_ يا له من طبيب مستغلّ!

هزتْ (رحيمة) برأسها وأجابت:

_ مستغلٌّ وحقيرٌ أيضاً.

خرجتا من عيادتهِ حزينتين مهمومتين، وفي طريق العودة إلى البيت حاولت (رحيمة) الطيبة أن تخفف عن صديقتها الملتاعة، فطمأنتها أن هناكَ طرقاً أخرى للإجهاض، منها خلطة من الحبوبِ أو بعض العقارات والأدوية المخصصة لإجهاض ذلك الحمل الملعون.

وفعلاً أحضرت لها جارتها (رحيمة) خلطة من الأعشاب من قابلةٍ كانت تقطن في الحيّ، وبعد مضيّ أربع وعشرين ساعة من تناولها لهذه الأعشاب أجهضت الجنين وانتابها شعوران متناقضان من فرح وحزن، فرح لخلاصها من ولد غير شرعيّ، وحزن على إزهاق روح بريئة، وارتكاب لذنب محرّم في الشرائع والأديان السماوية، ولكن لا شكّ في أنّ رحمة الله واسعة، ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى﴾.

*** *** ***

21 آذار/مارس الساعة العاشرة والربع صباحاً

ومِنَ الحبّ ما قَتل

توالت أيّام الشقاء يوماً إثر يوم، ومع كلّ يوم يمرّ كان أولاد (حيـاة) الثلاثـة يكبرون ويكبر همّهم معهم، وتزداد مسـؤوليتها عنهم أكثر فأكثر، كانت تسـتيقظ في الصـباح البـاكر، فتعـدّ لهم طعـام الفطور، وتوقظهم للـذهـاب إلى مدارسـهم، وما إن ينطلق كلّ إلى مدرسـته، تنطلق هي إلى عملها بحثاً عن الرزق ولقمة العيش المُلطّخة بالذلّ، فهي المعيلة الوحيدة التي تُقدم كل مُسـتلزمات الأولاد واحتياجات البيت، من غذاء ودواء وتعليم، بـالإضـافة إلى دفع أُجرة المنزل الشـهرية. كانت تخرج وحيدة في كل صـباح ولا تعودُ حتى المساء، ولا تتناول من الطعام طوال جولاتها الماراثونية الطويلة إلا ما يسدّ زقزقة عصافير بطنها، فكانت تدّخر كلَّ ما كانت تشحذه من الناس، أو ما كانوا يتصدّقون به عليها من

طعام ولباس ومال، لتقدّمه لأبنائها فلذة كبدها، فكُرمى لعيونهم يهون عليها الجوع والعطش، وتحتمل برد الشتاء وحرّ الصيف، كانت مستعدة فداء لهم أن تتخلّى عن كلّ شيء إلا تلك الصُّرة الرمادية التي تحملها على كاهلها وتلازمها صيفَ شتاءَ تدسّ فيها ما يهبها إياه المتصدّقون من زاد وثياب ونقود، فلا يكفيها ما تحمل من أعباء وهموم، بل تضيف إليها ما يُقدَّم لها لتقدّمه هنيئاً مريئاً لأولادها الذين تمحو ضحكتهم وهم يستقبلونها حين عودتها كلَّ آلام السعي الدؤوب، والسير المتواصل الممزوج بالتعب والإرهاق، فقصارى طموحها أن تجتاز بهم ضفّة تلك المرحلة العمرية الصغيرة، وأن تدفع بهم نحو ضفة مرحلة البلوغ، والاعتماد من بعدها على الذات، كانت تعود إلى عشّها حاملة الزاد لفراخها، لينموا وينبت ريشهم ويصبحوا مع مرور الأيام القادمة قادرين على الطيران.

أمّا العصفورة الأولى الزاهية الألوان التي نبت ريشها وغادرت العشَّ مغادَرَةً لا رجعة فيها فهي الابنة البكر(آية).

أصـــبحت (آية) فتاة يافعة جميلة تهتمّ بمظهرها وجمالها، كانت تتأنق وتتبرّج وتضـــع حُمرة الشـــفاه الســـحرية وتلبس أحدث موديلات الملابس، مثل جميع الفتيات في سنّها، وحقاً كـان يُضـــرب بهـا المثـل من نـاحيـة الاهتمـام بـالبروفـايـل الخارجي، بحيث لا يمكن لأحد أن يشكّ في أنها ابنةُ مُتسوّلة، بل إنّ أكثر المُحيطين بها كانوا يعتقدون أو باتوا على قناعة تامة بأنها من طبقة أرستقراطية.

أدركت (آية) أن قيمة المرء في مجتمعنا ترتبط بمظهره الخـارجي البرّاق وإن كـان خـادعاً، أمّـا مـا خفي فلا يُعبأ بـه، فإن أكلْتَ أبســـط طعام فلن يعرفَ أحد بذلك، أمّا إن أهملْتَ مظهركَ الخارجيّ فسيعتقدون أنّك متسوّل مشرّد تعيس فقير. وهذا الاســـتنتاج لمســـته بأمّ عينها من خلال واقعها وحال والدتها التي تخرج بملابس رثّة مهترئة متّســـخة لتســـتدرّ عطف الكرماء فيضاعفون لها العطاء.

أمّا (آية) فقد اختارت للتمويه ثياب الأغنياء الفارهة ذات الماركات الفخمة، ونجحت في ذلك، فبعد أن حصـــلت

على الشهادة الثانوية في الفرع الأدبي، سجّلت مُعلّمة صفّ في كليّة التربية، وتخرجت بدرجة امتياز، وتعيّنت في إحدى المدارس.

وبما أنها كانت الابنة الكبرى، فلِزاماً عليها أن تقوم بجميع أعباء العمل المنزلية بسبب غياب أمّها طوال النهار عن البيت، من تنظيف وكنس وغسيل للصحون والملابس، وتجهيز للطعام، فما إن تنتهي من دوامها في المدرستين الإعدادية والثانوية، حتى تعود إلى البيت وتهتمّ بمتطلباته، لقد كان حِسُّ المسؤولية عندها عالياً منذُ الصِّغر، وكانت تشعر بِمُعاناة أمّها.

وقد جمعها القدَر بالأستاذ (لهيب) الذي يُدَرّس معها في المدرسة نفسها، ومع مرور الوقت وزيادة المعرفة بينهما نشأت بينهما صداقة تطوّرت إلى محبّة وتعلّق، نعم، وقعت مُعلمة الصفّ الجميلة (آية) في حبّ الأستاذ (لهيب)، وظلّ حبّهما مخفيّاً عن أعين الآخرين، ولم يشعر بهما المدرّسون والطلاب المُحيطون بهما، حتى أمّ (آية) نفسها لم تلاحظ

التغيّرات الخارجية والنفسية التي طرأت على ابنتها بسبب ذلك الحبّ، وذلك بحكم عملها المتواصل خارج البيت؛ إذ فقدت الحبيبةُ (آيةُ) الشهيّةَ للطعام، ما أدّى إلى فقدان وزنها بشكلٍ مُريب، فكانت تبقى لساعات طويلة أمام المرآة، وتضع المساحيق المُختلفة الألوان، وترتّب شعرها الطويل، وتصفّفه بطريقة الكعكة، ولكنها مهما أخفت عن أمّها الخبر فعليها بالنهاية أن تُخبرها، ومضطرّة أن تُفاتحها بذلك لترى ردّة فعلها، أتكون إيجابية أم سلبية، وذات ليلة قدّمت القهوة لأمّها فشكرتها وقالت لها:

_ العقبى لفرحنا بك، وما أسعدني يوم أراك تقدّمين القهوة لشابّ يتقدّم لخطبتك!

احمرّت (آية) خجلاً ورأت الفرصة سانحة لجسّ نبض أُمّها فقالت لها:

_ حقّاً يا أمّي يفرحك هذا الأمر؟

_ نعم يا روحي، فغاية سعادتي أن أراك مرتبطة بإنسان يسعدك.

_ أظنُّ أنّي وجدته.

_ نعم نعم نعم!! هناك شخص في حياتك ولا تخبرينني به آنسة (آية)؟!

_ لم أكن واثقة من مشـــــاعري نحوه بداية، أو من مشاعره نحوي.

_ ومَن سعيد الحظّ هذا؟

_ مُدرّس زميل لي في المدرسة نفسها.

_ وما اسمه؟

_ أُستاذ (لهيب).

_ وهل يُحبّكِ حقّاً؟

_ أجل.

_ وأنتِ.

_ وأنا أيضاً أُبادله الشعور نفسه ماما.

_ وهل ينوي فعلاً الارتباط بكِ، أو مجرّد علاقة عابرة؟

_ قد فاتحني بأمر الخطبة، وهو جاهز للتقدُّم.

_ ومتى سيزورنا الأستاذ العاشق إلى البيت؟

_ ننتظر أن تعطينا حضرتُكِ الضوء الأخضر.

_ إذن لكِ الضوء الأخضر.

وافقت (حياة) على زيارة الأستاذ (لهيب) وأهله، ولكن ذلك القلب التعيس كان منقبِضـــاً وجِلاً، وهي لا تعرف لما شـعرت بتلك التعاسـة، فبدلاً من الفرح والسـعادة بِخطبة أكبر بناتها، انتابتها موجة كآبة وقلق، ولعل الســـبب الوجيه هو تذكّر أيام زواجها من (سميح الدبوس) تاجر السماد والبذور، حيثُ انقلب حُبّها آنذاك إلى جحيمٍ مُســـتعر. كانت (حياة) الرشيقة تكتوي بناره طَوال الوقت، فأثّرت تلك التجربة الفاشلة من الزواج في كيانها، فأصبحت مُتبلّدة الوجدان، وهيهات أن تُمحى آثار تلك الذكريات الأليمة مهما امتدّت بها الســنوات، أو ربما كان السـبب الجوهري في قلقها أنها تسـتحي وتخجل من مهنة التسوّل المنبوذة من وجهة نظر الناس التي تعيشُ بين ظهرانيهم، ولكنها لا تســـتطيع تأخير زواج أولادها أكثر من ذلك، فكلما زاد عمر الفتاة يصـبح حظها من الزواج أقل، فلتسـلم (حياة) نفسـها كُلّية وتضـع مصـير (آية) بيد القدر،

علّه يرأفُ بها، فأيام قليلة هي الكفيلة بكشـــف الغطاء عن المستور والمخفيّ في حياة (حياة).

أبلغت (آيـة) حبيبها (لهيب) بموافقة أهلها، واتفقا على موعد لزيارته مع أهله بيت العروس. وبعد أيام قليلة حضـــر العريس الأُســـتاذ (لهيب) إلى بيت العروس مع أمه ولفيف من أهله، وتعرّف إلى أمّ (آية) ولقي العروسان القبول من الوالدتين، وقُرِئت الفاتحة في الجلسة ذاتها، بعد أن اتفق الطرفان على المهر وتفاصـــيل أخرى، ففرح الجميع وســـرّهم الاتفاق السريع، باستثناء واحدة منهم فقط، هي أُمّ العروس، فقد ظلّ انقِباضُ قلبها على حاله، وفي حديثٍ جانبي بين أُمّ العريس وأُمّ العروس، سألتها أُمّ (لهيب):

ـ أمَّ (آية)، أين زوجكِ؟

ـ عند زوجته الجديدة.

ـ ماذا يفعل هناك؟ ولِمَ لا يحضر حفلة خطبة ابنته؟

ـ إنني مُطلّقة.

ـ آسفة إذا كان سؤالي ثقيلاً عليكِ.

_ لا تأســـفي أُمّ (لهيب)، فلســـتُ الأولى، ولن أكون الأخيرة.

كانت أم (آية) مُتأكدة أنهم لا بدّ أن يســـألوا عن والد العروس الغائب عن اللقاء، فهذا أمر متوقّع ولا يقلقها كثيراً، أمّا ما يقلقها أن يكتشـفوا عملها الذي لا شـكّ سـيقفُ عائقاً قوياً في وجه الخطبة والزواج. لم تجرؤ (حياة) على إبلاغهم هذه المعلومة الخطيرة، وكتمت تلك الحقيقة القاسية المرّة في قلبها، وتركت للزمن التحكم في علاقة ابنتها.

تمّ حفل الخِطبة، وكان العروســـان ســـعيدَينِ جداً يغمرهما الفرح، ويحيط بهما الحبّ، ويظللهما الوفاق والأنس. وازدادت الألفة بينهما بعد الخِطبة؛ إذ كانا يخرُجان معاً يوميّاً بعد الانتهاء من الدوام المدرســـي، ويتنزّهان في الحدائق والمقاصـــف، ويتحدّثان عن المســـتقبل، ويبوح كل للآخر بما يحلم.

وذات أمسية، جلست (آية) مع أُمّها المتسولة، وقالت لها:

_ ماما. هل لي من طلب؟

_ اطلبي وتمنَّي حبيبتي.

_ ماما.

_ يا قلب ماما.

_ ألا تزعلين مني؟

_ ولماذا الزعل؟

_ ولو كان طلبي ثقيلاً عليكِ؟

_ حتى لو كان ثقيلاً.

_ اتركِي هذا العمل.

_ أتركهُ؟

_ نعم، فأنا موظّفة والراتب كافٍ في الوقت الحاضر.

_ اســـمعي (آية)، راتبكِ ليس كافياً، فأخواكِ (فراس) و(أفين) مـا زالا طـالبين، ويحتـاجـان إلى من ينفق عليهمـا، فهل لك القدرة على تحمّل ذلك وحدَكِ.

_ ســأعمل دواماً إضــافياً، في أحد المحلات التجارية ماما.

_ عصـــفورة مـامـا، وحين تتزوجين، من ســـيقوم بإعالتنا؟

توقّفت (آيـة) عند هذا الحدّ من النقاش، ومـا كـان لـديهـا جواب مُقنع تُقدّمـه لأمهـا؛ لأن الأُمّ كـانـت مُحقّـة في حديثها، فإذا تزوّجت (آية) فإن صِـــلتها ســـتُقطع ماديّاً مع أهلها، فمن الطبيعي ألا يوافق الزوج أن تعيل زوجتـه أهلها، وأن تعمل لتقدّم كل ما تنتجه لأهلها.

وقع المحظور، وحلّ ما كانت تخشـــاه (حياة)؛ فقد وصـــل خبرٌ عن مهنة أُمّ العروس إلى أهل العريس، فقامت القيامة ســـاعتها، وزلزلت العلاقة العاطفية بين العاشـــقَين، وأخرجت أمّ (لهيب) أثقالها، فما الذي يجبر إنســـاناً محترماً من أسرة كريمة أن يناسب أسرة تقتات على التسوّل؟ وكيف لعائلة مُحترمة لها سمعة بين الناس، أن يرتبط اسمها بعائلة وضيعة النسب؟

لم يكن أمام العريس العاشــق الأســتاذ (لهيب) إلا أن يرضـــخ تحت ضــغطٍ هائل من الأهل الذين أجبروه أن يدوس

على قلبه وأن يفسخ الخطبة إرضاءً لهم، وذلك قبل أن يتمّ عقد قرانه رسمياً عليها.

ظلّت (آية) طريحة الفراش عدّة أيامٍ وليالٍ حينما أخبرها (لهيب) بقراره، وظلّت (حياة) المسكينة حائرة لا تعرف كيف تتصرف، فقد كانت تتوقّع أن يأتيها يوم يُفتضح به أمرها، وكانت تضع في حسبانها أن تتعرّض لمثل هذا الموقف، لكنّها لم تشأ أن تفسد الفرحة على ابنتها، أو أن تقطع في نصيبها. دخلت (حياة) إلى غرفة (آية) مريضة الهوى لتواسيها وتشجّعها للخروج من حالة الكآبة التي كانت تعيشها، فوقفت الأم المكسورة بجانب سريرها تُمسّدُ شعرها الحريري الناعم، وتُطيب من خاطرها قائلةً لها:

_ شدّي حيلك يا بْنَتي، هي أزمة وتمرّ.

_ لا، لقد انتهيتُ يا أمي.

_ لا تقولي ذلك مرةً أخرى.

_ وكيف لا أقولها يا أم (فراس)؟

ـ (آية) أمامكِ مستقبل طويل، وفرص أخرى يمكن أن تكون أفضـــل من هذا الذي يُدعى (لهيباً)، فاســـمه غريب وجهنّمي، وربمـا كـان الفراق من خيرنـا يـا بُنيّتي العزيزة، ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكمْ وعسى أن تُحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكمْ واللهُ يَعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾.

ـ لا يا أُماه كانت فرصتي الأخيرة، وكان حُبّي الوحيد.

ـ حاولي من أجلي أن تتماسكي، وأعدك أن أترك هذه المهنة اللعينة التي تجلبُ العار، وســـأبحثُ عن عملٍ جديد، إذا طاوعتِني، وقمتِ من فراشك يا (آية) الطيّوبة.

لم تُجِبْها، ولم تقم من الفراش، وأطبقت جفنيها إطباقاً مُحكماً، وغرقت في غيوبـة مؤقتـة، فغادرت (حيـاة) الغرفـة كئيبة حزينة على حال ابنتها التي كانت تبيّت أمراً خطيراً في نفســـها؛ إذ انتحرت بعد يومين من حديثها الأخير مع أُمها، فقد أخرجت مُســـدس أخيها (فِراس) من خزانـة الملابس، وأفرغت طلقة منه في قلبها المملوء حزناً وألماً، وكانت قبل انتحارها قد كتبت رسالة وُجدت على سريرها، قالت فيها:

«لقد مللت هذه الحياة القاسـية التي لا ترحم ولا تعدل بين الناس، فإلى متى سنؤخذ بجريرة غيرنا؟ إلى متى سنبقى أســـيرِي عاداتٍ باليـة وأعراف اجتماعيـة جائرة تفرّق بين عاشقين لأسباب لا صلة لهما بها؟ ما ذنب قلبي البريء أن يُحرَم من أول حبيب يخفق لـه؟ الموت أهون ألف مرّة عليّ من العيش بعيدة عمن ارتضاه قلبي أولاً، والعيش في مجتمع يحتقرني وينظر إليّ بدونيّة وذلّ. كيف ســـأقابل زميلاتي في المدرســـة؟ كيف ســـألقى طلابي؟ لا قِبَل لي بتحمّل نظراتهم الساخرة بي، فالموت خيرُ علاج لمن حاله كحالي.

آمـل أن تســـامحيني يـا أُمي الحنونـة، ويـا أخويَّ العزيزَينِ، ورجائي الوحيد وأملي أن ألتقي بكم في حياة أخرى غير حياتي الأولى التي عشـــتها بكل عفونتها وقذارتها، أرجوكم سـامحوني على تركي لكم، وعلى ما سـيسـببه موتي لكم من حزن وكبير أسى.

ابنتكم المحبة تعيسة الحظ (آية)».

*** *** ***

21آذار/مارس الساعة العاشرة والنصف صباحاً

مشكلة أُخرى

عندما تأتي المصائب لا تأتي فُرادى، بل بالجملة يتلو بعضُها بعضاً، مُصيبة تُلاحق أخرى بل تسابقها. فبعد انتحار الأُخت الكُبرى الجميلة (آية)، انتقلتِ اللعنة إلى أُختها الصُّغرى (آفين) فيما بعد.

كانت (آفين) متوسطة الطول والجمال والذكاء، أخذت الشهادة الثانوية- الفرع العلمي، وسجلت في كلية الهندسة الزراعية، وهي الآن في السنة الأولى. وقد دفعها حُبها للزهور واهتمامها بشتى أنواع الورود إلى اختيار فرع الهندسة الزراعية، علها تجد نشوتها الحقيقة هناك.

كانت تتعامل مُباشرة مع الأشجار والنباتات البرّيّة، فمنذُ نعومة أظفارها كانت تجذبها النباتات ويشدّها بريق الأزهار، وحينما صارت في سنّ البلوغ، بدأت تهتمّ بزراعة

النباتات، وكانت قد ابتاعت عدداً لا بأس به من تلك الأُصص البلاســـتيكية ذات القاعدة المُتحرّكة، وزرعت فيها أنواعاً مُختلفـة من الورود، كـالورد الجوري واليـاقوتي والزنبقـة، وأنواعاً أخرى من الزهور البريـة التي لا تُعد ولا تُحصـــى، وكانت تنفق كثيراً من وقتها على رعايتها والاعتناء بها؛ لذا كانت المُشـــاجرات بينها وبين أُمها مســـتمرة، فكانت (حياة) تقول لها:

_ لو تُذاكرين أليس أفضـــل من الاهتمام بهذه الزهور الخرساء التي لا تُفيدُ بشيء؟

فتضحك (آفين) وتسأل:

_ وكيف لا تُفيد؟

_ أُنظري كيف تجلب الأوساخ من حولها.

_ ألا تشمّين رائحتها العطرة التي تملأ الأرجاء عبيراً؟

_ بلى، رائحتها عطرة.

_ أيضـــاً؟ ألا تُلاحظين تلك الألوان الجميلة الخلابة التي تُدخل البهجة والسرور إلى القلوب البائسة؟

ـ يكفي.

ـ ماذا يحصل؟

ـ لا أقدر عليكِ، أنتِ فيلسوفة.

ـ شُكراً على هذا المديح الرائع يا أُمّ (فراس).

ولم يقتصـــر اهتمامها على النباتات الطبيعية، بل اعتادت (آفين) أنّها كلما ادّخرت قليلاً من المال الزائد من المصـــروف الشـــخصـــي تمرّ إلى محلّات بائعي الورود الصـناعية، وتبتاع ما يلفت انتباهها وما تجده من أصـناف جديدة حتى أضـــحى منزلهم حديقةً غنّاء، لا تنقصُـــها إلّا الفراشـات ذات الألوان البرّاقة والطيور. ولم تكن (آفين) على خلاف مع أمّها فحسـب بشـأن زيادة اهتمامها بالنباتات، بل كانت هي وشـقيقها (فِراس) يختلفان ويتنافران أيضـاً بسـبب تلك الأُصـــص الممتلئة بالزهور الطبيعيّة والصـــناعية التي كانت تنتشـر بكثرة مُفرِطة بغرفة المعيشـة وغرفة النوم وحتى

المطبخ، فيعلّق أخوها دائماً ويقول لها إنّه مرض وهوس سيلازمها حتى الممات.

كانت (آفين) في فصل الشتاء تستعمل كؤوساً بلورية شفافة لشرب الماء، ثمَّ تملؤها بالتراب الأحمر، وتغرس فيه الورد الصناعي، ثم ترشُّ عليها رذاذ العطر الفوّاح، فتصبح كالورد الطبيعي تفوح منها رائحة زكية، وكلّ يومين أو ثلاثة كانت تعطّر أزهارها الاصطناعية، وتسقي التربة الحمراء بالماء، لقد صار طقساً مُقدّساً، وسنّة متّبعة لا تحيد عنها، فكل يوم ولا سيّما في الشتاء لها جلسات مطوّلة بجانب تلك الأُصص من الورود الصناعية، تلامسها وتتأملها مليّاً، ثم تقول لنفسِها إنها مصنوعة من البلاستيك، ولكنّ عمرها طويل جداً، وتظل على الدوام تُحافظ على رونقها ورشاقتها وألوانها الزاهية التي لا تبهت ولا تذبل أبداً، والشيء الأجمل فيها إذا لامستها لا تُجرح، وتبقى (آفين) جالسة تتخيل وتتمنى أن تكونَ مثل الزهرة الاصطناعية لا تفنى ولا تذبل.

وفي أيـام الربيع كـانـت تجلسُ إلى جـانـب زهورهـا الطبيعية وتتأملها كذلك، وتقول في نفسـها: آه يا ورودي كم أنتِ قصـيرة الأجل تذبلين بسـرعةٍ هائلة ولكِ أشـواكٌ جارحة، تُدمين من يلامســك؛ لذا كانت تؤمن أن الأزهار الصــناعية أفضـل من الطبيعيّة، فكانت تتمنى أن تكون وردة صـناعية، وألّا تكون وردةً طبيعية، وذلك بســبب عمرها القصــير، ولو أدركت (آفين) لحظتها أن الإنســان يتعذب في حياته كثيراً؛ لأنه في كل مرحلة من المراحل العُمرية اللاحقة، يعيشُ حياة جديدة غير حياته في المرحلة الســابقة، حيثُ يتغير فيها جسده وعقله حتى الأصدقاء، مثل تطبيق الفيسبوك نُضيف صديقاً ونُزيل صديقاً آخر، وأيضاً يتم الانتقال من مدرسة إلى أُخرى، أو حتى يتغير مكان الإقامة لمرات عديدة، وهكذا يدوم التغيير ولا يبقى شــيء ثابت على حاله وفي مكانه، فالحركة أساس الكون، والحركة والدوران المستمران أصل الوجود، أمّا لحظـة التوقف فهي لحظـة الفنـاء الأبـدي لكل الكون، وتطرأ التغيّرات تدريجياً على الإنسان من الولادة حتى الممات.

كانت (آفين) تكبر وينتشـــل العمر بعضـــاً من بريقها وهي عازفة عن الزواج، لقد حطّمتها لعنة تســـوّل (حياة) وانتحار (آية)، فباتا عدوّتين لدودتين لها في الدنيا، وســـبّبا لها مأســاة نفســية، وحملاها على اختيار العنوســة الدائمة. وفي إحدى المرات وقع نِقاش بين (آفين) وأُمها، فقالت لها الأُم:

ـ (آفين)، أنتِ تكبرين بالعمر يا بنيّتي.

ـ ماذا تُريدين أن أفعل؟

ـ ابحثي عن عريس.

ـ لا أُريد.

ـ لمَ؟

ـ أنا خائفة.

ـ من تجربة المرحومة (آية)؟

ـ أجل.

ـ جرّبِي حظكِ مرة واحدة.

ـ مثل (آية)؟

_ نعم.

_ لا أستطيع.

_ أفهم منكِ أنكِ اخترتِ العنوسة؟

_ طبعاً اخترتُ العنوسة.

كانت للمهندسة (آفين) فلسفة خاصة بها، فقد اختارت أن تكون وردة صناعية متلبدة المشاعر والأحاسيس؛ لأنها وجدت أن الحبّ قد ينقص العمر، بل قد يدفع صاحبه إلى الجنون أو الانتحار كما فعلت أختها، أو قد يودي بصاحبه إلى الضياع والتشرد كما حصل مع أمّها. أمّا العانس فلا شيء يسلبها بريقها، ولا زوج ينغّص عيشها، ولا أولاد يستهلكون عافيتها، لذا يطول أجلها وتحافظ على بريقها كورودها الصناعية ذات الأجل الطويل، أمّا الورود الطبيعية فستأوي إليها النحلات والفراشات وستثقل أوراقها وتتحمّل ما هو فوق طاقتها، وستحملهنَّ على كاهلها كما تحمل أمّها صُرّتها الرماديّة، ستحملها معها طول العمر، فتتعبها وتشقيها، فالنحلة ستمتصّ رحيقها وتقدّمه لغيرها،

كحال (حياة) التي تتســوّل طوال اليوم وترهق نفســها يومياً بحمل صرّتها لتقدّم ما بداخلها مساء لأولادها، فالخير إذاً لها أن تبقى عانســاً تحافظ على جمالها من أن تَهَبَ نضــارتها وحيويتها للجميع.

أما (فراس) الولد الوحيد، فقد سجّل في قسم الجغرافية في مدينة أخرى، وكان يقيم في السكن الجامعي، وكانت أُمه (حياة) تخابره بين حينٍ وحين، وتطلب إليه أن يبقى هناك دائماً، ويســتقرّ في تلك المدينة بعد أن يُنهي دراســته الجامعية، ويتخذ من هناك مسكناً نهائياً له دون الرجوع إلى بلده أبدا، لكي لا يُعيّره أحد بأمه، ولا يحمل عبء ذنب لا يد له فيه، فيحمل صــرة أيضــاً لا نصــيب له فيها، غير الهمِّ والغمّ.

ولكن هذه هي الحياة مبنية على الشقاء والبلاء، فكل امرئ لا بُدّ أن يحمل على ظهره صــرة ما قد يختلف محتواها ولكنها لا شكّ ستكون ثقيلة وتعيق حاملها وتمتصّ من جهده وعافيته حتى تفنيه. قد يختلف وزن هذه الصُّرّة بين شخص

وآخر، فبعضهم كمّيّة أحزانهم خفيفة بحسب الظروف والحظ، فيكون حملها عليهم خفيفاً، ومن الناس من تكون صُـــرتهم مليئـة حتى الثمـالـة بـالعوزِ والمرض والفقر والجهل، فيكون حملها عليهم وبالاً ثقيلاً.

أنهت (حياة) رواية قصّـتها لمسـتمعها (كليم) والدموع تنهال من عينيها والحزن يفتّت قلبها بســـبب كثرة محطّات الفراق التي مرّت بها في حياتها؛ فقد فارقت زوجها الذي كانت تحبّه، ثم فارقت أبناءَها لشـــهور، ثم فارقت أخاها، ثم رحلت عنها ابنتها (آيـة) منتحرة، ثم فـارقت ابنتها (آفين) التي كانت تنزوي أمام زهورها الصـــناعية وعقدت قطيعة مع أبناء مجتمعها، ثمّ فارقت وحيدها المدلل (فراس) الذي رحل إلى مدينة أخرى.

تألّم (كليم) لقصـــة (حياة) الدامية، وأدرك أنّها بطلة من أبطال زمانه المجهولين، فلا أحد يعلم كم ضـحّت (حياة)، وربما هناك نســاء أخريات يضــحّين أكثر منها ويتحمّلن من أعباء الحياة فوق ما تحتمله أنوثتهن، وللأسـف نرى الرجال

يبدون أكثر فضيلةً وإيماناً وتقوى، ولكنّ كثيراً منهم _كما بدا في هذه الرواية وفي غيرها _ في صميم كينونتهم فاسقون ومُذنبون ومجرمون، مثل الزوج الفاجر (سميح)، والأخ القاسي، والرسام المغتصب، والأستاذ (لهيب)...

وفي كثير من الأعمال الأدبية تبدو النساء خارجياً ذوات مظاهر جميلة وخلابة تأسرُ أقوى القلوب، ولكنهن من الداخل مُستنقعات آسنة مليئةٌ بالقذارةِ والفجورِ والمكيدة.

قد يَصدق الأمر في حال بعضهم وبعضهنّ، ولكنّ التعميم خاطئ؛ لأنه ينطلق في كثير من الأحيان من وجهة نظر خارجية، في حين أيّ شخص نضعه تحت المجهر ونشخّص واقعه سنتعاطف معه ونلتمس له الأعذار، ونشفق على حاله، وهذا حال بطلتنا (حياة) فقد كان (كليم) يستهجن سلوكها وعملها في التسوّل، ولكنّه حين عرف قصّتها، واطّلع على تفاصيل حياتها أشفق عليها ورأى أنه ظلمها وجار عليها في حكمه.

*** *** ***

تمت 14/ 9/2022م جنكو تمو

الفهرس

صالة السعادة للأواني المنزلية 9

الطلاق..... 33

أنتِ مطرودة إلى الأبد..... 57

الرسّام المغتصب 81

طبيبٌ مُستغِلٌّ..... 92

ومِنَ الحبّ ما قَتل.....104

مشكلة أُخرى.....118

جنكو تمّو

روائيّ سوريّ

من مواليد القامشلي 1972م

أصدر ثلاث روايات سابقة:

«آلة الشيطان» «كليفيس» «المغامر العاشق»

الصّرّة الرّماديّة

تسرد هذه الرواية معاناة المتسوّلة (حياة) التي اضطرّتها ظروفُها القاسية ومعاناتُها مع زوجها الشاذّ وتخلّي أخيها عنها إلى امتهان التسوّل لأجل الحفاظ على أولادها، ولكنّ المصائب توالت عليها، فسلبتها بعضاً من كرامتها، وكثيراً من سعادتها، وجُلّ حياتها.